المتكلمون في المهد

تأليف
غانم غانم

عيسى ابن مريم

شاهد يوسف

الطفل الذي تكلم في قصة أصحاب الأخدود

ابن ماشطة فرعون

الطفل الذي تكلم للعابد جريج

الطفل الذي دعا الله أن لا يجعله كالجبار

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ "(آل عمران: ١٠٢).

وقال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا "(النساء: ١)

وقال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا «(الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد:

إن أحسن الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة،

وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

إن الخالق سبحانه الذي لا تدركه أبصارنا، لم يتركنا هكذا في بيداء الحياة، بل أظهر لنا آياته التي تدل على كمال قدرته، وأنه هو الإله الحق الذي يستحق العبادة وحده، جل في علاه وعظم في عالي سماه.

وقد عدد لنا سبل قدرته، وطرق الوصول إليها، فمن قدرته وعجائب خلقه ما نشاهده في الصباح والمساء، ومنها ما نشاهده في العام مرة، ومنها ما نشاهده في العمر مرة.

قال تعالى: «قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ» (يونس: ١٠١).

ومنها أمور غيبية لم نشاهدها، أخبرنا عنها ربنا في كتاب عظيم، نقرؤه ونرتّله في صلاتنا وقيامنا وبيوتنا ومساجدنا، وأخبرنا عنها رسولنا صلى الله عليه وسلم بوحي من الله تعالى.

قال سبحانه: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» (النجم: ٣، ٤).

ولماذا الحديث عن قدرة الله تعالى؟

لأن الله خلق الخلق ليتعرفوا عليه وعلى قدرته، ويعبدوه، ومن خلال النظر والتعرف على قدرة الله يزداد المؤمن إيمانا.

ومن ناحية أخرى هناك العديد من الأمور الغيبية في قدرته والتي أخبرنا بها ، ليختبرنا الله هل نحن من عباده الذين يؤمنون بالغيب؟ أم من الذين لا يصدقون إلا الأمور المشاهدة ؟

ومن الأمور العجيبة الخارقة لمألوف الناس ، والتي أخبرنا الله سبحانه عنها ، كما أخبرنا عنها رسوله الكريم ولم نشاهدها في هذا العصر : أن يتكلم الأطفال في المهد .

وقد كنت أشرح للناس في المسجد قصصا رائعة من الكتاب القيم للدكتور عمر سليمان الأشقر رحمه الله : صحيح القصص النبوي .

فلفت انتباهي بعض قصص الصالحين ، والتي فيها كلام أطفال في المهد ، فأحببت أن أجمع وأستقصي هذه القصص في كتاب ، لعلمي أنه لم يكتب أحد في هذا الموضوع كتابا مستقلا .

ثم بدا لي وأنا أتصفح الانترنت أن الدكتور مصطفى مراد قد كتب كتابا في ذلك ، ولكن الكتاب غير موجود على صفحات الانترنت ، ولم يتسن لي قراءة هذا الكتاب أو الاطلاع عليه ، لأنه فيما أعلم غير موجود في بلادنا .

فقمت بعد رمضان من هذا العام ١٤٣٣هـ ، وبعون الله تعالى ، وجمعت القصص الواردة في الأطفال الذين تكلموا في المهد .

وقد حاولت ما استطعت أن أجمع من كلام العلماء ، الدروس

والعبر المستفادة من هذه القصص ، لأنها : زاد روحي عظيم للدعاة ، ولكل المسلمين في كل زمان ومكان .

وبلا شك أن النفس تهوى الأسلوب القصصي ، وربما تستفيد منه أكثر من غيره ، لذا جاء القرآن بالعديد من القصص ، ليستفيد الناس منها .

خصوصا وأن أكثر هذه القصص يتحدث عن بطولات أناس صالحين ، بعضهم ضحى بنفسه لتعيش الأجيال من بعده على : لا إله إلا الله .

وقد اعتمدت في استقصاء هذه القصص على ما ورد في القرآن الكريم ، وصحيح السنة المطهرة ، لأن الاعتماد على الأحاديث المكذوبة والضعيفة ، يجر إلى إضلال المسلمين ، عدا عن الجريمة النكراء : الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمتكلمون في المهد ستة بالنصوص الصحيحة ، وإلا فإن بعض العلماء ذكروا عددا آخر من الأطفال الذين تكلموا في المهد ، ولكن بلا دليل ولا برهان .

قال ابن حجر في فتح الباري(٦/ ٤٨٠) :

" وزعم الضحاك في تفسيره أن : يحيى تكلم في المهد ، أخرجه الثعلبي ، فإن ثبت صاروا سبعة وذكر البغوي في تفسيره : أن إبراهيم الخليل تكلم في المهد .

وفي سير الواقدي : أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم أوائل ما ولد» . أ هـ

وأما المنهج الذي اتبعته في هذا الكتاب فيتلخص فيما يأتي :

فقد كنت اذكر مقدمة قصيرة لكل قصة ، ثم اذكر القصة دون شرح .

فإن كانت من القرآن فهي صحيحة بلا ريب : كقصة عيسى عليه الصلاة والسلام ، وشاهد يوسف عليه السلام ، مع أنه لم يذكر القرآن أنه طفل ، ولكن دللت على ذلك من السنة الصحيحة .

وإن كانت القصة من السنة ذكرت تخريجها ، دون أن أستقصي كل الروايات إلا إذا كان في بعض الروايات زيادة فائدة لا توجد في الأخرى .

واعتمدت في تخريج الأحاديث على كلام المحدثين والعلماء المتخصصين في هذا الشأن ، ومن ثم اذكر تحليل القصة وفوائدها ، بما يستفيد منه طلاب العلم والعوام إن شاء الله تعالى .

وقد استفدت كثيرا في ذلك من كتابي :

صحيح القصص النبوي ، للدكتور عمر الأشقر رحمه الله

وكتاب : القصص القرآني للدكتور صلاح الخالدي .

وأنصح بقراءتهما ففيهما فوائد كثيرة .

ولا بد لي أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من الأستاذ عبد الله

سلامة "أبو نضال" ، والأستاذ مصطفى حميدة "أبو طارق"، على جهدهما الطيب في مراجعة الكتاب وتدقيقه.

وفي ختام هذه المقدمة أسأل الله سبحانه أن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا، وأن يجعل عملنا كله صالحا ، ولوجهه خالصا ، ولا يجعل لأحد فيه جزءا.

غانم غانم

إمام مسجد ديرابزيع - رام الله

والمدرس في مدارس نور الهدى التطبيقية

٥/ ذو الحجة/ ١٤٣٣هـ.

٢١/ تشرين أول/ ٢٠١١م.

المبحث الأول:

عيسى ابن مريم

عليه الصلاة والسلام

تمهيد:

كانت ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام ، وكلامه في المهد من معجزات الله الباهرات ، التي أيد الله بها هذا النبي منذ بداية حياته ونشأته .

وقد شملت حياته على العديد من الغرائب والعجائب ، بداية من مفاجآت ولادته ، واتهام أمه الطاهرة العفيفة ، وانتهاء بكيد الكائدين له ، ولدعوته ، وغطرسة اليهود والتآمر لقتله .

وانتهاء بنجاته ورفعه، ومن ثم نزوله في آخر الزمان ليحق الحق، ويبطل الباطل، ويحكم في الأرض بشريعة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يشاء الله سبحانه .

فلا بد من الوقوف على حياة هذا النبي كما جاءت في كتاب الله، وفي صحيح سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه لا يمكن أن يعتمد في شيء من الأخبار على غير هذين المصدرين .

فالاعتماد على الكتب المحرفة : (التوراة والإنجيل) في معرفة قصته يقود إلى الكفر .

وقد ورد اسم عيسى عليه الصلاة والسلام في القرآن خمسا وعشرين مرة، وورد اسم أمه مريم رضي الله عنها : أربعا وثلاثين

مرة، ثلاثا وعشرين مرة منها مقرونة باسم عيسى عليه الصلاة والسلام بصيغة: عيسى ابن مريم، وإحدى عشرة مرة مجردة عن عيسى.

وقد اهتم القرآن بشأن هذه القصة التي ضل فيها مئات الملايين من البشر، وكفر بها مئات أخرى، اهتماما بالغا، ووضح جوانبها بما لا يدع مجالا للشك في أمور اختل فيها ميزان الأحبار والرهبان، ورفضوا الحق فضلوا وأضلوا:

كيفية ولادة المسيح - عيسى عليه الصلاة والسلام عبد الله ورسوله - عيسى عليه الصلاة والسلام بشر- ليس إلها ولا ابن إله - عيسى لم يقتل ولم يصلب -عيسى سينزل في آخر الزمان.

وقد رأيت أنه ينبغي أن نقف على قصته كاملة، ولكن بشيء من الاختصار[١].

مريم ابنة عمران من عائلة تقية نقية

ليس لعيسى عليه الصلاة والسلام أب، ووالدته الطاهرة مريم رضي الله عنها.

ولدت ونشأت في عائلة تقية نقية، فهي مريم ابنة عمران بنص

١ القصص القرآني للخالدي: ص ٣٦١ وما بعدها ، والقيامة الصغرى للأشقر: ص ٩٦٢ وما بعدها.

القرآن، قال سبحانه: » وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا « (التحريم: ١٢).

وقد أثنى الله سبحانه على عمران في كتابه، فقد جاءت سورة كاملة في القرآن تحمل هذا الاسم احتراما لهذا الرجل وهذه العائلة الكريمة: سورة آل عمران.

وقد اصطفى الله من هذه العائلة الكريمة أن جعل فيها مريم، والتي أنجبت عيسى عليه الصلاة والسلام، وأختها زوجة نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام، والتي أنجبت نبيا آخر هو: يحيى عليه الصلاة والسلام، ولا ينسى الشقيق التقي للأختين: هارون الذي ورد ذكره في القرآن بالمدح والثناء أيضا.

وقد بين الحق سبحانه في كتابه أن هذه العائلة مصطفاة من عند الله سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ»(آل عمران: ٣٣).

ولادة مريم رضي الله عنها وكفالتها

فقد ذكر الحق سبحانه أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها لله تعالى محررا من أية عبودية لغير الله، فلا يخضع لطاغوت بشر، ولا لقانون أرضي، إنما لله وحده: " إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

"(آل عمران: ٣٥).

ولعل امرأة عمران كانت تأمل أن يكون ما في بطنها ذكرا ليقوم على خدمة دينه على أكمل وجه، وأن يحقق العبادة لربه ويدعو إليه، وإلى ذلك أشارت الآيات القرآنية: "فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"(آل عمران: ٣٦).

فليس الذكر كالأنثى: في القيام بأعباء الدعوة وتحمل المسؤولية، وإلا فلا فرق بين الذكر والأنثى من ناحية التفضيل إلا بالتقوى، كما بين الحق سبحانه: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات: ١٣).

واختارت أمها لها اسم مريم: "وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ"(آل عمران: ٣٦)، وطلبت من الله سبحانه أن يعيذها ويحميها وذريتها من الشيطان الرجيم: "وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"(آل عمران: ٣٦).

وقد أكرم الله سبحانه مريم بأن لم يذكر في القرآن اسم أنثى إلا اسمها، ومن ذكرت في القرآن من النساء ذكرت بلقبها، أو كنيتها: "أم موسى"، "امرأة فرعون"، "امرأة نوح".

لقد استجاب الله دعاء أمها لها فحماها وذريتها من الشيطان الرجيم، فكل مولود يبكي حين ولادته إلا عيسى ابن مريم.

والناس يظنون أن بكاء الصبي لدى الولادة ناتج عن ألمه من أوجاع الولادة، والحقيقة غيبية غير هذا الذي نظنه، فقد وضح النبي صلى الله عليه وسلم الأمر وجلاه كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا.

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

رواه البخاري: ٣١٧٧.

فالشيطان يحاول أن يطعن في المولود لدى ولادته، إعلانا منه أنه سوف يسيطر ويقوى عليه، ولكنه ما استطاع أن يطعن عيسى عليه الصلاة والسلام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُولَدُ غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ". رواه البخاري: ٣٠٤٤.

وبعد ولادة مريم رضي الله عنها تنازع العابدون في شرف

كفالتها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على السمعة الطيبة التي كانت تتمتع بها هذه الأسرة الكريمة: (آل عمران)، فصاروا يلقون سهامهم قرعة فيما بينهم أيهم يكفل مريم.

قال سبحانه: " ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ»(آل عمران: ٤٤).

وبعد القرعة خرج سهم زكريا عليه السلام ليكون كفيلا لمريم: " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا»(آل عمران: ٣٧)، وهذا أمر سماوي اختاره الله لمريم.

فزكريا عليه السلام أحق بها لأنه زوج أختها الكبيرة، ومعلوم أن الأخت إذا كفلت أختها فإنها ترعاها رعاية تامة تشبه رعاية الأم.

فضل مريم على نساء العالمين

وتتوالى الكرامات تترى على مريم رضي الله عنها، فيرسل الله سبحانه لها الملائكة لتخبرها أن الله اصطفاها على نساء العالمين.

قال سبحانه: "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ" (آل عمران: ٤٢).

فكان الاصطفاء الأول لها عاما عندما اصطفى عائلتها الكريمة آل عمران، ثم جاء الاصطفاء مرتين في هذه الآية: " اصْطَفَاكِ

وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ" (آل عمران: ٤٢).

ويرجح العلماء أن الاصطفاء الأول يختلف عن الثاني في هذه الآية:

فالأول: أن الله سبحانه اجتباها لتكون محلا لتطبيق أمره العجيب(الحمل بعيسى عليه الصلاة والسلام)، فهذا وإن كان ابتلاء شاقا عليها، إلا أن فيه من الرفعة ما فيه لهذه المرأة الطاهرة.

الثاني: بمعنى التفضيل فالله فضل مريم على نساء العالمين، وهذا التفضيل ثمرة للأول، فهو تابع له.

وقد جاءت الأحاديث تباعا عن رسولنا صلى الله عليه وسلم في تفضيل مريم على نساء العالمين، منها:

حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ قال: سَمِعْتُ عَلِيًّا بِالْكُوفَةِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ"

رواه البخاري: ٣٢٤٩، ومسلم: ٦٤٢٤.

والمعنى: خير نساء أهل زمانها كما قال الحافظ ابن حجر.

فتح الباري: ٧/ ١٣٥.

وقد يكون المقصود والله أعلم: أن مريم خير النساء في الأمم السابقة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وخديجة خير نساء هذه الأمة.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ قَالَ:

تَدْرُونَ مَا هَذَا؟

فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ".

رواه أحمد: ٢٥٣٦، ورواه الحاكم في المستدرك: ٤٧٥٤ وقال: صحيح الإسناد، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة: ١٥٠٨.

وقد بلغت مريم رضي الله عنها مرتبة الكمال الإيماني، كأعلى ما يصل إليه البشر في إيمانهم بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم:

فعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ: مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ".

رواه البخاري: ٣٢٣٠، ومسلم: ٦٤٢٥.

فبمجموع هذه الأحاديث يتبين أن مريم رضي الله عنها من خيرة نساء الدنيا.

بل شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم أنها خير نساء أهل الجنة:

فعن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ".

رواه أحمد: ١١٣٣٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٥٤٩٢.

وهذا من اصطفاء الله لها على نساء العالمين" وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» (آل عمران: ٤٢).

ولم تنل مريم هذه المنزلة الرفيعة إلا لأنها كانت قانتة زاهدة عابدة لربها، ممتثلة لأمره سبحانه وتعالى: »يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» (آل عمران: ٤٣).

وقد كان إخبار الله لمريم بالاصطفاء، والزيارات المتكررة من الملائكة تمهيدا لها بسماع البشارة العظيمة التي تحمل في ثناياها واحدة من أعظم الابتلاءات التي مرت بها الإنسانية، وفتنت بها البشرية، وضل بها الضالون.

جبريل يبشر مريم بعيسى ويعطيها أوصافه.

لقد اعتزلت مريم الطاهرة قومها، ولكن لماذا؟

لم يبين القرآن ذلك.

واتجهت إلى المكان الشرقي، ولا يعرف شرقي ماذا، وإن كان أكثر المفسرين يقولون: بأنه شرقي بيت المقدس إلا أنه لا دليل على ما قالوا.

وفي هذا المكان الذي اعتزلت فيه مريم رضي الله عنها، جاءتها الملائكة بالبشارة من عند الله لها بعيسى عليه الصلاة والسلام.

وقد بينت آيات سورة مريم أن المقصود بالملائكة هو جبريل وحده عليه الصلاة والسلام:

" فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا". (آل عمران: ١٧).

والروح: هو جبريل عليه الصلاة والسلام كما أشارت إلى ذلك عدة آيات من كتاب الله تعالى، كقوله سبحانه: " وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ» (الشعراء: ١٩٣، ١٩٢).

وقوله سبحانه: "يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبأ: ٣٨).

وسمي جبريل روحا: لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب، فكما أن الروح تحمل حياة الأبدان، فالوحي فيه حياة القلوب التي فيها سعادة البشرية.

جاءها الروح جبريل عليه الصلاة والسلام "فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا". (مريم: ١٧)، فخافت منه وأعربت له عن دهشتها منه، لأنها

الطاهرة العفيفة التي لا تعرف الرجال ولا تخالطهم، وأخذت تستجيش فيه تقواه بالله أن يبتعد عنها: " قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (مريم: ١٨).

فأخبرها أنه رسول الله إليها: " قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ "(مريم: ١٩).

فماذا يريد الرسول؟ وماذا يحمل معه؟

" . . . . . لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا" (مريم: ١٩).

إنها البشرى بكل وضوح: " إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (آل عمران: ٤٥).

وقد وضح جبريل عليه السلام الأمر وجلاه حتى لا يلتبس الأمر على مريم رضي الله عنها في مسألة خلق عيسى عليه السلام، فمن بداية البشارة نسبه إليها للإشارة أنه يولد دون أب.

والأمر ليس غريبا ولا عجيبا لأنه: كلمة من الله تعالى: " . . . . . يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . . . . . " (آل عمران: ٤٥).

فعيسى كلمة من الله: وهي الكلمة الإلهية: (كن) التي يخلق الله بها الخلق.

وقد أزال القرآن استغراب البشر في خلق عيسى، فقال لهم: "

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (آل عمران: ٥٩).

فآدم خلق من تراب من غير أب أو أم، ثم قال الله له: كن فيكون.

وقد بين جبريل عليه السلام لمريم رضي الله عنها أن عيسى بشر مميز على غيره من البشر بالنبوة والمعجزات، والخصال الحميدة التي لا يصل إليها اتقى الناس من غير الأنبياء والمرسلين، فعلمت مريم صفاته وشيئا من معجزاته قبل خلقه.

قال سبحانه: " إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ" (آل عمران: ٤٥، ٤٦).

فهو أولا الملقب بالمسيح، ولماذا أطلق عليه لقب المسيح؟

لأن الله أجرى على يديه خوارق العادات وسائر المعجزات، ومن بينها أنه كان يمسح على الأعمى والأبرص فيشفى بإذن الله تعالى، وهذا ما أشارت إليه آيات عدة من القرآن، في آل عمران: " وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى"(آل عمران: ٤٩).

والمائدة: " وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي"(المائدة: ١١٠).

ومن صفاته الأخرى:

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: فهو ذو وجه ومكانة رفيعة في الدنيا.

وفي الآخرة في أعلى منازل الجنة مع النبيين والمرسلين.

وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ: الذين قربهم الله منه، وأعلى منازلهم عنده، وهم أرفع من أصحاب اليمين كما وضحت ذلك سورة الواقعة: «(٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» (الواقعة: ٨٧، ٩١).

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً: وهذا أول معجزاته أنه يكلم الناس فور ولادته، وذلك عندما يفاجأون بحمل مريم رضي الله عنها.

وسيكلم الناس وهو كهل(شيخ كبير): وهو إشارة إلى نزوله عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان.

وَمِنَ الصَّالِحِينَ: وسيكون معروفا بصلاحه وتقواه.

ولقد عرف النجاشي عيسى عليه الصلاة والسلام من صفاته التي وصفها له الصحابة رضي الله عنهم في هجرتهم المشهورة إلى الحبشة كما روتها أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ: النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ

جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ.

فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

قَالَتْ: فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ.

ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا، وَلَا يُكَلِّمَهُمْ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ.

فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ.

ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ.

فَقَالَا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ .

وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا ، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ .

قَالَتْ : وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ .

فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ : صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا ، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا ، فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ .

قَالَ : فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ، ثُمَّ قَالَ : لَا هَا اللَّهِ(ومعناها : لا والله) أَيْمُ اللَّهِ إِذَنْ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا ، وَلَا أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي وَنَزَلُوا بِلَادِي وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ ، حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ؟

فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا ، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا ، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي .

قَالَتْ : ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا.

ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟

قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا جَاءُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ:

فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ.

قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ.

وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا

بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ.

قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا.

فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ؟

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كهيعص.

قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلَا أُكَادُ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا: لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا.

قَالَ: وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ.

فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ.

قَالَتْ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالَ لَهُمْ مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ.

قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ.

فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ، وَاللَّهِ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي (وَالسُّيُومُ الْآمِنُونَ)، مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي

دَبْرًا ذَهَبًا وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ، (وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ).

رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ.

قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ قَالَتْ: فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ يَعْنِي مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ.

قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ، فَيَأْتِيَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ.

قَالَتْ: وَسَارَ النَّجَاشِيُّ وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النِّيلِ، قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟

قَالَتْ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: أَنَا.

قَالَتْ: وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًّا.

قَالَتْ: فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ، قَالَتْ: وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ، وَاسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّى

قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ .

رواه الإمام أحمد : ١٧٤٠ .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع . مجمع الزوائد ٦/ ٢٤ .

وقال صاحب كتاب العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم(٤/ ١٠٠):

رواه البيهقي في الدلائل : ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠ ، وقال : وهذا إسناد صحيح .

مريم تعبر عن دهشتها.

وهكذا أصبحت كل تفاصيل البشارة عند مريم واضحة المعالم ، إلا أن هذا لم يمنع مريم رضي الله عنها من الدهشة والاستغراب أن تلد بدون رجل .

فمريم شابة تعرف أن المرأة التي تلد لا بد لها وأن تعاشر رجلا ، سواء أكان بالحرام أم بالحلال ، ولم يكن منها أن تزوجت ، وحاشاها أن ترتكب الفاحشة : " قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا" (مريم : ٢٠) .

وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ : والمراد هنا بالمعاشرة الزوجية الحلال .

وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا : لم أكن زانية ، وقد شهد لها الحق بطهارة فرجها ،

فهي المحصنة الطاهرة، بل هي أطهر نساء العالمين.

قال سبحانه: " وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ» (الأنبياء: ٩١).

وقال أيضا: « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ» (التحريم: ١٢).

أزال جبريل عليه الصلاة والسلام دهشتها، وأخبرها أن الأمر مفروغ منه غير خاضع للنقاش، لأن هذا الولد سيكون آية من الله لعباده.

قال سبحانه على لسان جبريل عليه السلام: » قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا» (مريم: ٢١).

فالأمر على الله سهل ميسور لأن أمره بين الكاف والنون، والغرض من خلقه: آية للناس.

وأمره مقضي: مفروغ منه.

حمل مريم ووضعها

نفخ الملك الموكل جبريل عليه الصلاة والسلام في مريم فحملت، وهذا ما عبرت عنه الآية في سورة الأنبياء(٩١): "فَنَفَخْنَا فِيهَا".

والظاهر أن محل النفخة كان فرجها الطاهر، فالملك نظيف من كل سوء، لا يعصي الله ولا ينظر إلى النساء كما ينظر البشر، لأنه ليس له شهوة، وهذا ما عبرت عنه آية التحريم(١٢): "فَنَفَخْنَا فِيهِ".

"فَنَفَخْنَا فِيهَا" أي في مريم، ومحل النفخ الفرج: "فَنَفَخْنَا فِيهِ".

وأمر هذه النفخة من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، كيف وصلت إلى الفرج، وصارت جنينا؟

إن الله على كل شيء قدير.

وأما الفرق بين النفخ في عيسى وآدم عليهما الصلاة والسلام فهو كالآتي:

١. النفخ في عيسى كان في فرج أمه، وأما آدم فكان في الجسد المجسد.

٢. النفخ في عيسى كان بوساطة جبريل، وأما في آدم فكان من الله مباشرة: "ونفخت فيه من روحي"(ص: ٧٢).

٣. عبر عن النفخ في عيسى بضمير الجمع: "فنفخنا فيها"، لاجتماع المسبب وهو الآمر بالنفخ هو الله، والسبب الذي قام بالعملية: جبريل عليه السلام.

وأما آدم فالذي تولى العملية بشكل مباشر هو الله: "ونفخت فيه".

وأما إضافة الروح إلى الله فهو من باب التشريف، وإلا فمحال أن تكون روح الله في آدم وعيسى سيما وأنهما سيموتان ومحال لروح الله أن تموت.

وقد ناظر بعض النصارى علي بن الحسين بن واقد المروزي، فقالوا له: بأن ما في القرآن يشهد أن عيسى جزء من الله تعالى وذكروا الآية: "من روحنا".

فعارضه ابن واقد وقال له: هذا يستلزم أن السموات والأرض بكل ما فيها جزء من الله تعالى، وتلا قوله تعالى: "وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعا منه"، فسكت النصراني ثم أسلم.

لفتة طيبة:

يذكر بعض العلماء أن من حكمة خلق الله لعيسى بهذه الكيفية: أن البشرية لم تشهد خلقها، وخلق أبيها الأول، فأراد الله سبحانه أن يريهم شيئا من عجائب قدرته التي تدل على كمال قوته وعظمته، ولكن للأسف قست قلوبهم من بعد ذلك، فكفر الكثير وضل الكثير.

ولو نظر هؤلاء إلى عظيم قدرة الله في خلق الإنسان على الطريقة الطبيعية التي يعرفونها لتجلت أمامهم قدرة الله ولعرفوا عظمته، فالرجل ليس له إلا أن يستمتع بملاقاة المرأة، فلا دخل له في ملاقاة البويضة بالمني، ولا في تكوين المولود، ولا نفخ الروح فيه.

وكم من مستمتع بزوجته ولم ينجب أولادا، فهل من معتبر؟

قال سبحانه: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» (الشورى: ٤٩، ٥٠).

وبعد حمل مريم رضي الله عنها بعيسى عليه الصلاة والسلام ابتعدت مرة أخرى عن أهلها وعن أعين الناس، فغادرت المكان الشرقي إلى مكان أبعد منه، وهذا الانتباذ غير الانتباذ الأول:

" وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا" (مريم: ١٦)، هذا الأول.

وأما الثاني: "فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا" (مريم: ٢٢).

وقد اختلف العلماء في مدة حمل عيسى عليه الصلاة والسلام، هل كان حملا طبيعيا تسعة أشهر، أم أنه كان ساعات؟

جمهور العلماء على أن الحمل كان طبيعيا إذا ليس هناك ما يدل على غير ذلك.

وذهب بعض العلماء ومنهم ابن عباس إلى أن الحمل كان في ساعات، بدليل الفاء التي تدل على التعقيب الفوري: فحملته، فانتبذت، فأجاءها، كلها متعاقبة.

ومن جملة ما استدل به الفريق الثاني: قراءة غير متواترة، حيث قرأ البعض كلمة (فأجاءها): فاجأها، بمعنى: الولادة في

غير موضعها وفي غير وقتها ، وإنما جاءت مفاجأة .

ولا يؤثر الخلاف في مثل هذه المسائل ، والذي أميل إليه : أنه كان حملا طبيعيا لأنه لا يوجد دليل صحيح صريح يدل على غير هذا .

ولما جاء المخاض مريم اضطرها إلى القدوم إلى جذع النخلة ، وأكرهها على ذلك ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : " فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ" (مريم : ٢٣) .

ولا شك أن هذا الجذع لنخلة حية لها ظل يؤوي مريم رضي الله عنها ، لأنها أكلت من ثمارها .

وفي هذه اللحظات الحرجة تتمنى مريم الموت لعظم البلاء ، وشدة الفتنة التي ستقاسيها بعد هذه الولادة .

فالألم الجسدي رغم قساوته (لأن العذراء تكون خائفة في أول مخاض) ، يزول بالولادة ، وتبقى الآلام النفسية القاسية حين تواجه المجتمع .

قال سبحانه على لسانها : "قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا" (مريم : ٢٣) .

ومعنى نسيا منسيا : لم أخلق .

وتلد مريم رضي الله عنها في بيت لحم دون تحديد المكان بالضبط ، لا كما يزعم النصارى في كنيسة المهد .

والدليل على أن الولادة كانت في بيت لحم :

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعي جبريل عليه السلام، فسرت فقال: انزل فصل ففعلت.

فقال: أتدري أين صليت؟

صليت بطيبة وإليها المهاجر.

ثم قال: انزل فصل فصليت.

فقال: أتدري أين صليت؟

صليت بطور سيناء حيث كلم الله عز وجل موسى عليه السلام.

ثم قال: انزل فصل فنزلت فصليت؟

فقال: أتدري أين صليت؟

صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام،

ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل حتى أممتهم،

ثم صعد بي إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم عليه السلام،

ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام،

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام،

ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام،
ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام،
ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام،
ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام،
ثم صعد بي فوق سبع سموات فأتينا سدرة المنتهى، فغشيتني ضبابة فخررت ساجدا، فقيل لي:

إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك، وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، فرجعت إلى إبراهيم، فلم يسألني عن شيء.

ثم أتيت على موسى، فقال: كم فرض الله عليك وعلى أمتك؟

قلت: خمسين صلاة.

قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

فرجعت إلى ربي فخفف عني عشرا.

ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع فرجعت، فخفف عني عشرا.

ثم رُدت إلى خمس صلوات.

قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما، فرجعت إلى ربي عز وجل فسألته التخفيف، فقال: إني يوم خلقت السموات والأرض

فرضت عليك ، وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك .

فعرفت أنها من الله تبارك وتعالى صرِّى(أي : حتم لازم) فرجعت إلى موسى عليه السلام، فقال : ارجع فعرفت أنها من الله صرِّى(أي حتم) فلم أرجع .

رواه النسائي : ٤٥٠ ، واختلف العلماء في إسناده .

فقال الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي٢/ ٩٤ : منكر ، وصححه البيهقي في دلائل النبوة : ٢/ ٢٤١ .

كرامات الله لمريم في الولادة

قال تعالى : " فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي"(مريم : ٢٤) .

وفي أثناء ألم الولادة، والمعاناة النفسية، تحدث المعجزة الإلهية لعيسى عليه الصلاة والسلام، وتجري الكرامة الربانية لمريم رضي الله عنها، فينادي الولد على أمه من تحتها، ويبدو أن المناداة كانت في أثناء الولادة، لأن هذا يناسب القول : من تحتها .

ويناسب الوعد الإلهي بأن الولد سيكلم الناس في المهد، فيكون هذا تمهيدا لما سيحصل، وتخفيفا على مريم أن الولد سيدافع عنها : فلا تحزني .

هذه أول العبارات التي نطق بها عيسى عليه الصلاة والسلام،

وكم كانت المفاجأة لأم حزينة وهي تسمع كلام ابنها في المهد.

وقد ذكر بعض العلماء أن الذي كلمها هو جبريل عليه الصلاة والسلام، ولكن:

الراجح أن الذي نادى هو عيسى عليه الصلاة والسلام، ومما يرجح ذلك: أن الكلام السابق كان عن عيسى عليه الصلاة والسلام: فحملته، فانتبذت به.

"قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا" (مريم: ٢٤).

وقد أجرى الله تحتها نبعة ماء، لتشرب وهي في مكانها.

"وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا" (مريم: ٢٥).

أمرها الله سبحانه أن تهز جذع النخلة، مع أنها تعاني ألم الولادة: حتى يعلم الأمة أن تأخذ بالأسباب، وهذا درس إيماني عظيم أن يربط الإنسان بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب، فالأخذ بها جزء من التوكل، وبعد الأخذ يفوض الإنسان أمره إلى الله تعالى.

ولا شك أن مريم امتثلت أمر ربها لها الذي جاء على لسان عيسى لها، فسقطت عليها الرطب الجني الناضج الطري: وهو الذي يصلح للاجتناء: القطف.

والرطب هو ثالث المراحل التي يمر بها التمر:

١ . البلح : ثمر النخل إذا اخضر .

٢ . البسر : عند بداية نضجه .

٣ . الرطب : بعد تمام النضج .

٤ . التمر : عندما يبالغ في نضجه ، ويصبح فيه يبوسة .

٥ . العجوة : عند آخر نضجه يركم بعضه بعضا .

فلا تحزني فعندك كل ما تحتاجين إليه ، الماء والشراب والرطب : «فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا» (مريم : ٢٦) .

وقرور العين لا يكون إلا في مكان الراحة والسرور فلا تتحول العين إلى غيرها .

وإذا كنت تخافين من مواجهة المجتمع فما هو الحل؟

"فَإِمَّا تَرَيِنَّ(من الرؤية) مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا" (مريم : ٢٦) .

فنذرت مريم أن تصوم ثلاثة أيام طوعا باختيارها ، بينما كان صمت زكريا إجباريا لا إراديا كلما أراد أن يتكلم فلسانه لا يطاوعه .

ولاحظ الفرق في التعبير القرآني بين صوم مريم : "فقولي إني نذرت للرحمن صوما" .

وبين صمت زكريا : " قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا»

(آل عمران: ٤١).

وصوم مريم كان بأمر من الله تعالى، فلا يكون الصمت قربة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى.

وقد روي: «أن رجلين دخلا على ابن مسعود فرد أحدهما السلام ولم يرد الآخر، فقال ما شأنه؟ قال: نذر أن لا يكلم الناس.

فقال له ابن مسعود: كلم الناس، وسلم عليهم فإن تلك المرأة علمت أن أحدا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج.

عيسى عليه السلام يكلم الناس في المهد

وفي أعظم اللحظات حرجا على مريم رضي الله عنها تلك التي واجهت قومها: "فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ"(مريم: ٢٧).

وقبل أن يستفصلوا عن حالها وحال الطفل، ولم يسألوا: لربما تحمل طفلا لأحد الناس من أقاربها، إلا أن التهمة جاءت مباشرة وبدون أدنى ورع ولا تقوى: " قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا" (مريم: ٢٧). والشيء الفري: الأمر العظيم.

أنت أخت الرجل الصالح هارون، وأبوك التقي وأمك الطاهرة. "يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا" (مريم: ٢٨).

وبعض العلماء رجح أنه أخو موسى عليه السلام حيث كانوا

يتشبهون بالصالحين، ولكن الراجح رأي الجمهور أنه أخ حقيقي لمريم وقد ورد في ذلك حديث صحيح:

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: "لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ: يَا أُخْتَ هَارُونَ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا.

فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ.

فَقَالَ: "إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ".

رواه مسلم: ٥٧٢١.

وأمام هذا الاتهام فإن مريم تشير إلى الطفل إشارة الواثق من وعد ربها، ولأنه تكلم معها من قبل.

" فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ.

قَالُوا: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟ (مريم: ٢٩).

وهنا تظهر المعجزة الإلهية لعيسى عليه الصلاة والسلام، ويفتح القوم عيونهم مبهورين مما يشاهدونه، وسيطرت المفاجأة على كيانهم، لأن الأمر حقيقة لا خيال، لا مجال للتكذيب، فالأمر أمامهم.

الكلمات التي نطق بها عيسى في المهد

قلنا أنه تكلم من قبل مع أمه لدى الولادة أن لا تحزن وأن تهز

جذع النخلة وتأكل وتشرب وتستقر، ولم يكن الأمر أمام الناس لذا كانت المفاجأة لمريم وحدها، وأما الآن فهي للجميع، وقد قال لهم، وحدثهم عن شخصه ، وأنه ينبغي عليهم أن يقتدوا به ويتأسوا بحياته، فهو القدوة والأسوة، فماذا قال لهم؟

١ . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ: فلست إلها ولا ابن إله، بل بشر وعبد لله كغيري، فهو تكذيب مبكر للنصارى.

٢ . آتَانِيَ الْكِتَابَ: بمعنى ما سيكون في المستقبل سيؤتيني الإنجيل.

٣ . وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (مريم: ٣٠): كسابقتها بما سيكون في المستقبل.

٤ . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ: معلما للخير، وبعضهم خصه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر واسع فالبركة ثبتت لعيسى من وجوه كثيرة.

٥ . وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ: هذا على تقدير ما سيكون في المستقبل، سيأمرني بالصلاة، وكانت صلاتهم فيها ركوع وسجود ، ولكن لا نعرف عن تفاصيل كيفيتها الأخرى: "يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين"(آل عمران: ٤٣).

٦ . وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (مريم: ٣١): ما سيكون في المستقبل، ولا ندري كم كانت الزكاة ومقدارها في مالهم.

٧. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي: فليس لي أب، وإلا لكنت أوصيتكم ببره أيضا كما أوصاني ربي ببر والدتي.

٨. وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا: مستكبرا على الله وعباده.

٩. شَقِيًّا (مريم: ٣٢): وبما أن هذه صفاتي فلن أشقى في حياتي، لأن الذي يشقينا هو الذنوب:

قال سبحانه: "فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى» (طه: ١٢٣- ١٢٦).

وقد أنهى كلامه بأن أخبرهم بتمام بشريته لأن الله أضفى عليه السلام والأمان في المواضع الثلاثة الحرجة من حياته، لأن ولادته اختلف فيها العباد، وكذا موته، وهل سينزل في آخر الزمان.

وبعثه حيا يوم القيامة: وهذا لا خلاف فيه حتى بين كل الديانات الباطلة فيما أعلم:

«وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ»:

فلم ينل مني الشيطان كما ينال من الناس عند الولادة من الوخز والطعن كما سبق.

وقد اختلف نوع السلام الذي أضفاه الله على عيسى، عن السلام الذي أضفاه الله على يحيى عليهما الصلاة والسلام، فالسلام على عيسى: معرف، بينما سلام يحيى: نكرة.

فسلام عيسى قال عنه الله تعالى: ""وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا" (مريم: ٣٣).

وسلام يحيى قال عنه سبحانه: "وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا" (مريم: ١٥).

وفي هذا إشارة إلى أن سلام عيسى كان أخص من سلام يحيى، لأن حياته وميلاده أكثر حرجا، وقد كان يعلم علام الغيوب أن الناس سيكيدون به، ويحاولون قتله ولكن الله نجاه من كيدهم.

وقد سكت القرآن عن الفترة بين ميلاده وبعثته، فهي من مبهمات القصة التي لا يعلمها إلا الله، فلا ندري ماذا جرى لمريم؟ وكيف عاشت حياتها مع قومها وهي تربي في ذلك الطفل؟

وهل تكلم عيسى غير الكلمات التي ذكرها القرآن، أم أنه لم يتكلم؟

وهل تزوجت مريم أم لم تتزوج بعد ولادتها عيسى عليه السلام؟

جاء في فتاوى الشبكة الإسلامية:

فالذي يقرره العلماء أن مريم عليها السلام لم تتزوج قط، لا قبل ميلاد عيسى عليه السلام ولا بعده.

قال شيخ الإسلام رحمه الله : "والنصارى الجهال يزعمون أن مريم تزوجت بيوسف النجار، وأنها ولدت المسيح، فيكون في هذا حجة للفلاسفة واليهود على أنه ابن يوسف، سواء كان لِرشده أو لغيه، وهذا باطل، فإن مريم بتول لم تتزوج قط"

فأما عدم تزوجها قبل أن تحمل بعيسى عليه السلام فمقطوع به، وبه جاء القرآن، كما قال تعالى : " قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا" (مريم : ٢٠).

وأما بعد ميلاد عيسى عليه السلام فليس في نصوص الوحي ما يتعين المصير إليه، من أنها لم تتزوج بحيث يكون المكذب بهذا النص كافرا، والأحسن هو أن نقف حيث أوقفنا الله تعالى، وألا نخوض فيما لا علم لنا به، وألا نثبت أو ننفي إلا ببرهان». أ هـ

وهل تزوج عيسى أم لم يتزوج خصوصا وأنه بلغ سن الزواج؟، وهل أنجب أولادا أم لم ينجب؟

وقد ذكر الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة وحسنه(٢٥١٢)، من حديث أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعا بذراع الملك، على حسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى : ثلاث وثلاثون سنة، وعلى لسان محمد، جرد مرد مكحلون".

وقال في الطيوريات(١٧/ ٣٠) :

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/ ٣٩٨-٣٩٩، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط، وقال: إسناده جيد.

المهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام بعث نبيا كما بين سبحانه: "ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ" (مريم: ٢٧).

وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤمن به، كما جاء في حديث عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ".

رواه البخاري: ٣٢٥٢، ومسلم: ١٤٩.

وقد جعله الله سبحانه خاتم أنبياء بني إسرائيل لأنه ليس بينه وبين رسولنا (خاتم النبيين) عليه الصلاة والسلام رسول.

فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى، الأَنْبِيَاءُ أَبْنَاءُ عَلاَّتٍ وَلَيْسَ بَيْنِى وَبَيْنَ عِيسَى نَبِىٌّ".

رواه البخاري: ٣٢٥٩، ومسلم: ٦٢٨٠.

ومعنى أبناء علات: الأخوة لأب، أمهاتهم شتى وأباهم

واحد، وكذا الأنبياء اجتمعوا على العقيدة رغم اختلاف أحكامهم وتشريعاتهم.

ولم يبعث إلا إلى بني إسرائيل، فلم يبعث أحد إلى الناس كافة إلا رسولنا عليه الصلاة والسلام:

قال سبحانه: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (فاطر: ٢٨).

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النبيُ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".

رواه البخاري: ١١٩١، ومسلم: ٣٣٥.

وبلا شك أن النصرانية اليوم اخترقت من ملل شتى، وشعوب مختلفة مع أن عيسى لم يأت إلا إلى بني إسرائيل، فقد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة: "وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» (المائدة: ٤٦).

وقد ذكر سبحانه بعض صفات المؤمنين من أمة محمد في الإنجيل كما سجل ذلك القرآن: » مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء

عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ(النبات الصغير بجانب النبات الكبير) فَآزَرَهُ(قواه وساعده الكبير) فَاسْتَغْلَظَ (صار غليظا) فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ(نضج الزرع على السيقان التي تحمل السنابل) يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ (المزارعون) لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (الفتح : ٢٩).

معجزات عيسى عليه السلام

لقد أخبر القرآن الكريم عن العديد من المعجزات التي آتاها الله لعيسى عليه الصلاة والسلام، نعدد منها ما استطعنا :

١ . حمل أمه بغير زوج .

٢ . أجرى لها سري الماء .

٣ . والرطب الذي تأكله .

٤ . نزل عيسى من بطن أمه يتكلم .

٥ . وأنطقه أمام الناس .

هذا قبل نبوته، وأما بعدها :

١ . آتاه الإنجيل وفيه تشريع لبني إسرائيل : « وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم

بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُور»(المائدة: ٤٦).

وهناك آية قد يرى البعض فيها إشكالا، ولا إشكال إن شاء الله، وهي قوله تعالى: " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ» (آل عمران: ٤٨).

وكذا قوله تعالى: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ»(المائدة: ١١٠).

وما دامت الآيات ذكرت الإنجيل، فما هو المقصود ب: الكتاب؟

الكتاب هنا: بمعنى الكتابة.

٢. أيده بجبريل يدافع عنه: " وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»(البقرة: ٨٧).

٣. كان يصنع من الطين تمثالا على شكل طائر، وبعدما يجف التمثال ويبس، ينفخ فيصير طيرا بإذن الله، وهذا ما ورد في آيتين:

الأولى: « وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ(يعني: ورسولا قائلا إلى بني إسرائيل) أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ. .»(آل

عمران: ٤٩).

الثانية: " وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي(هنا تشكيل الصورة في التمثال) فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي" (المائدة: ١١٠).

وفي الآية الأولى: قال فأنفخ فيه: أي في التمثال، وفي الثانية: فأنفخ فيها: تمثالا على هيئة الطير فأنفخ في الهيئة المشكلة.

٤. وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ: الذي ولدته أمه أعمى، ولم يتوصل الطب القديم ولا الحديث لمثل هذا.

٥. وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي: الذي في جلده بياض.

٦. "وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ: وهذه من أعاجيب معجزاته أنه لم يكن يحيي الموتى فقط بل كان يخرجهم من قبورهم بإذن الله: "وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي".

ويبدو أن في الآيتين ترتيبا، فهو أولا يحيي الموتى وتدب فيهم الحياة وهم في القبور، لأنه معروف أن الإنسان إذا مات دفن، ثم يخرج من قبره حيا.

٧. يخبرهم بما غاب عنه من أصناف الطعام الذي يأكلونه في بيوتهم: » وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» (آل عمران: ٤٩).

٨. نجاه الله من كيد بني إسرائيل عندما مكر به اليهود: "وَإِذْ

كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ" (المائدة: ١١٠).

٩. رفعه الحق إلى السماء كما سيأتي.

عيسى والحواريون

لقد آمن بنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام في عصره مجموعة من قومه سماهم الله في القرآن: الحواريون، وذكرهم خمس مرات في كتابه كلها للدلالة عليهم.

وكلمة حواري تعني: النصير، وقيل: المطهر، والأول أقرب لدلالة الآيات على ذلك.

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يأتني بخبر القوم (يوم الأحزاب)؟

قال الزبير: أنا.

ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟

قال الزبير: أنا.

فقال النبي صلى الله عليه و سلم: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ".

رواه البخاري: ٢٦٩١.

ولما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام كفر معظم الذين حوله دعا

الحواريين إلى نصرته، فاستجابوا لطلبه.

قال سبحانه: "فَلَمَّا أَحَسَّ(أدرك الكفر بحواسه) عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ" (آل عمران: ٥٣).

ونلاحظ أنهم لم يقولوا نحن أنصارك إلى الله، بل قالوا: نحن أنصار الله: وذلك للتشريف وللدلالة على شدة التزامهم بالمنهج السماوي.

وفي آية أخرى: "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ: (ألهمتهم وألقيت في قلوبهم الإيمان) أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ" (المائدة: ١١١).

ونلاحظ أن إيمان الصحابة رضي الله عنهم لم يكن مثل إيمان الحواريين: بل كان أعظم، لأن الحواريين صاورا بعد إيمانهم يطلبون المعجزات الباهرات، فطلبوا من عيسى عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء، بينما الصحابة كان تصديقهم أعظم فلم يطلبوا هذه المعجزات بعد إيمانهم.

قال سبحانه: "إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (المائدة: ١١٢).

قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان الحواريون يشكون في قدرة الله، وإنما قالوا: يا عيسى هل تستطيع سؤال ربك.

التحرير والتنوير: ٥/ ٢٦٤.

وقد كره عيسى عليه الصلاة والسلام سؤالهم، فبينوا أن الهدف منها ليس تعجيزيا وإنما:

"قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا": ويبدو أنهم كانوا جائعين، فأرادوا كرامة من الله بإطعامهم.

"وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا": بأن الله معنا ويؤيدنا، وهذا يذكرنا بما قاله إبراهيم لربه: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» (البقرة: ٢٦٠).

«وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا»: في نبوتك ومعجزاتك، فنحن لم نطلب منك ولا معجزة وإنما طلبها الآخرون.

"وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ" (المائدة: ١١٣): نشهد على إنزالها، ونقدم شهادة بأن الله أيدك بهذه الآية.

وقد طلب عيسى من الله هذه المائدة: " قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً(يعني يوم نزولها) لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (المائدة: ١١٤).

وقد وعدهم الله بإنزالها وقد أنزلها فعلا، وهذا رأي الجمهور

من العلماء لدلالة الآيات على ذلك، قال سبحانه: "قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ" (المائدة: ١١٥).

ولم تذكر المائدة إلا في سورة المائدة، ولم يرد عنها إلا ما ذكره الله إجمالا في كتابه، فماذا كان عليها من صنوف الطعام؟ وكم أكل منها القوم، مرة أم مرات؟

كل ذلك مما لا ينفع به علم ولا يضر به جهل.

عيسى يبشر قومه برسول الله

لقد بشر الأنبياء جميعا ببعثة رسولنا خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، جاء ذلك في كتاب الله تعالى: » وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ«(آل عمران: ٨١).

فقد أخذ الله عليهم المواثيق لئن جاء الرسول وهم موجودون ليؤمنن به ولينصرنه فأقروا على ذلك.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة عندما وجد عمر بن الخطاب يقرأ في صحيفة.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ: " أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي".

رواه احمد: ١٤٦٢٣، وحسنه الألباني في إرواء الغليل: ٦/ ٣٤.

وقد صرح القرآن ببشارة عيسى برسولنا عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ" (الصف: ٦).

وجاءت السنة بما جاء به القرآن:

فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ: دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ

مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ".

رواه أحمد: ١٦٥٣٧، وحسنه الألباني في المشكاة: ٣/ ٢٥١.

وقد ورد في القرآن ما يثبت أن أوصافه عليه الصلاة والسلام وردت في التوراة والإنجيل.

قال سبحانه: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الأعراف: ١٥٧).

ورسولنا صلى الله عليه وسلم هو سيد الأنبياء وخاتمهم، ونور هذا الموكب النبوي الكريم من عهد آدم إلى آخر وختام هذه النبوة المباركة.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "مَثَلِى وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قبلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟

قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ".

رواه البخاري: ٣٣٤١، مسلم: ٦١٠١.

وَيَوْمَ أَمُوتُ(إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَي)

كذب اليهود نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا قتله، ولكن الله سبحانه تكفل بالدفاع عنه.

قال سبحانه: " وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ" (المائدة: ١١٠).

وفي سورة آل عمران: " وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (آل عمران: ٥٥).

وَمَكَرُواْ: (أي اليهود، لأنهم رسموا خطة دقيقة لقتل عيسى عليه الصلاة والسلام، وما أراد الله أن ينجيه إلا بمعجزة: أن رفعه من بين أيديهم، وألقى شبهه على واحد من أتباعه المخلصين.

ولا خلاف أن عيسى عليه الصلاة والسلام ما قتل وما صلب، ولكن هل مات عيسى عليه الصلاة والسلام ورفع ميتا، أم رفع حيا، وكيف يخرج قوله تعالى: " إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَي؟

بعض العلماء قال: رفع عيسى عليه الصلاة والسلام إلى السماء بعدما أماته الله.

وبعضهم قال : في الآية تقديم وتأخير ، بمعنى : أني رافعك إلي ثم مميتك بعد نزولك إلى الأرض عندما يأتي أجلك .

وبعضهم قال : الوفاة هنا وفاة نوم ، وهذا هو الراجح لأن عيسى لم يمت وسيقاتل الدجال ، وقد ورد في القرآن ما يدل على أن الوفاة تأتي بمعنى النوم .

قال تعالى : " وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ (يقبضها بالليل ثم يعيدها في النهار) وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (الأنعام : ٦٠)

قال سبحانه : " اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الزمر : ٤٢) .

فالناس في النوم على قسمين : منهم من تمسك روحه ويموت ، ومنهم من تعاد .

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، بمعنى : الله أيضا يتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها فيخرج أرواحها من أجسادها عند نومها ، ويعيدها إلى الأجساد حين الاستيقاظ .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ : « اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ » . وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .

رواه البخاري: ٥٩٥٥، ومسلم: ٧٠٦٢.

وعن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه و سلم: إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين".

رواه البخاري: ٥٩٦١.

فيكون بذلك قد اتفقت الأحاديث مع الآيات بأن الوفاة تأتي بمعنى النوم.

واللطيف في التعبير القرآني أنه ذكر الوفاة لعيسى مرتين:

مرة هنا ليدل على النوم عندما أراد بنو إسرائيل قتله، لأنه لا يمكن أن تكون هذه وفاة موت، فيكون عيسى قد كتب عليه الموت مرتين في هذه الحياة، هذه المرة، والأخرى عندما ينزل ليقتل الدجال، وهذا لا يستقيم.

ومرة في المائدة ليدل على الوفاة الحقيقية التي ستحصل لعيسى عليه الصلاة والسلام، عندما ترك الناس على أتم حال فلا يدري ما أحدثوا بعده.

قال سبحانه: " مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ

الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (المائدة: ١١٧).

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ

لقد طلب اليهود من أنبيائهم ما لا يتصوره العقل، ولا يتخيله الخيال، طلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتابا من السماء، وطلبوا منه أن يريهم الله جهرة.

وفي كل مرة يطلبوا غرائب الأمور فيعاقبهم الله ويشدد عليهم.

ووصل بهم الأمر أن قتلوا الأنبياء، والذين يأمرون الناس بالقسط، ووقفوا سدا مانعا دون تطبيق أمر الله في الأرض.

وقد كفرهم الله سبحانه بسبب موقفهم من عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه.

قال سبحانه: " وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء: ١٥٦- ١٥٨).

وقد وضحت الآيات سبب كفرهم:

١. اتهامهم مريم الطاهرة بالزنا.

٢ . تخطيطهم لقتل عيسى عليه الصلاة والسلام .

٣ . التفاخر بقتل عيسى عليه الصلاة والسلام حسب ادعائهم ، ولكن كما قال ربنا سبحانه : " وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ» .

فقد قتلوا المشبه وظنوا أنهم قتلوا عيسى عليه الصلاة والسلام .

وقد روى لنا حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أحداث تلك الليلة العظيمة في حديث ذكره ابن كثير في تفسيره(٢/ ٢٥٠)، وقال : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج على أصحابه ، وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين : فخرج عليهم من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء .

فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة ، بعد أن آمن بي .

ثم قال : أيكم يُلْقَى عليه شبهي ، فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟

فقام شاب من أحدثهم سنا ، فقال له : اجلس .

ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب ، فقال : اجلس .

ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا .

فقال : أنت هو ذاك!

فألقي عليه شَبَه عيسى ورفع عيسى من رَوْزَنَة في البيت إلى

السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به.

وافترقوا ثلاث فرق:

فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم".

إذا: هذا حديث صحيح موقوف، هل له حكم الرفع أم أنه من الإسرائيليات، هذه المسألة تحتاج إلى حكم من المحدثين.

ونحن نظن في حبر الأمة أنه لا يأخذ من الإسرائيليات.

ولم تذكر القصة من هو هذا الشاب البطولي الذي قدم نفسه لله، ولا ماذا جرى لمن بقي من الحواريين، وبقي الكثير من أحداث تلك الليلة مبهما.

لذلك اختلف أهل الكتاب، فكان أكثرهم يرى أن عيسى قد

قتل، ولكن الله سبحانه أرى الحواريين ماذا صنع بعيسى وكيف رفع من سقف البيت.

لذا عذر العلماء من قال: بأن عيسى قد صلب قبل نزول القرآن.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ(وهم اليهود الذين تبجحوا بقتله، والنصارى الذين قالوا: رسولنا قتل وصلب) فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ من علم.

الهاء في (فيه) (منه) (به): كلها تعود على القتل والصلب.

ويبدو أن الشاب عندما قتل لم يتكلم أنه ليس عيسى حتى زاد من شكهم، وهذا منه عظيم كتمان السر فرضي الله عنه.

وبقيت النصرانية على التوحيد بعد رفع عيسى إلى السماء فترة إلى أن تسرب الشرك إليها على يد رجل يهودي ادعى النصرانية يسمى: بولس، ويدعو إلى تأليه عيسى ويقدم أفكارا على النصرانية الصافية، ويجرب عليهم أفكاره.

حتى استقر الأمر في النصرانية من القول بتأليه المسيح إلى القول بالتثليث، مع أن بعض النصارى لا زالوا يؤلهون المسيح، وحورب النصارى الموحدون.

وكما قال ابن عباس في اختلافهم إلى ثلاث فرق.

وقد ذم الله تعالى غلوهم في دينهم وفي عيسى عليه الصلاة والسلام: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ

إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ: (أي ثلاثة لهم تحكم في الكون، الأب والابن وروح القدس).

انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا" (النساء: ١٧١-١٧٣).

وقد حذر رسولنا صلى الله عليه وسلم الأمة أن تقع في غلوه كما وقعت النصارى في غلو عيسى عليه الصلاة والسلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله". رواه البخاري: ٣٢٦١.

والله يقيم الحجة على النصارى في الدنيا والآخرة، فلا حاجة لله في اتخاذ الولد، وهل قال عيسى عليه الصلاة والسلام أنه ابن الله؟!

قال سبحانه: "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" المائدة: (١١٦-١١٩).

نزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان

رفع عيسى عليه الصلاة والسلام إلى السماء حيا وهو حي إلى يومنا هذا، وسينزل في آخر الزمان ليحق الله الحق على يديه.

فينزل ليقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال.

وقد أخبرنا ربنا سبحانه أن نزول عيسى من علامات الساعة الكبرى التي تدل على قرب قيام الساعة.

فقد أخبر ربنا مريم رضي الله عنها قبل ولادته أنه سيكلم الناس في المهد وهو كهل: " قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦)»

(آل عمران: ٤٥، ٤٦).

وفي سورة الزخرف جاء البيان الواضح أنه من علامات الساعة وأماراتها:

قال تعالى: " وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (الزخرف: ٥٧-٦٢).

فالشاهد من الآيات: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

وقد أورد القرآن في آيات أخرى أن النصارى سيؤمنون به قبل موته وذلك قبيل الساعة.

قال سبحانه: » وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» (النساء: ١٥٩).

فالهاء في كلمة: به، تعود على عيسى عليه الصلاة والسلام باتفاق أهل العلم.

والهاء في موته: تعود أيضا على عيسى على الراجح من أقوال

أهل العلم .

وبعض أهل العلم قال أن الهاء تعود على الكتابي : أي قبل موت كل كتابي يرى الحق في مسألة عيسى فيؤمن فلا ينفعه ذلك الإيمان .

والأول أرجح .

وقد وضحت السنة بكل جلاء مسألة نزول عيسى قبيل الساعة ، جاء ذلك في العديد من الأحاديث .

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا .

فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ؟

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ .

فَقَالَ : غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .

إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ .

فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً (خلة : طريق) بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً : يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا .

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِى الأَرْضِ؟

قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ.

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟

قَالَ: لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ.

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِى الأَرْضِ؟

قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ.

ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شيء مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ.

ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ(قلت: في الحديث تحديد مكان نزوله

بالضبط) بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ (قلت : وهذا من عظيم قدرة الله تعالى حيث جعل نفسه في أول حياته فيه حياة للبشر فيحيي به الموتى ، والآن نفسه فيه موت) .

وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ (نهاية بصره) فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ .

ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ .

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ (حرز : ضم)عِبَادِي إِلَى الطُّورِ .

وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ . وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .

ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ ، فَلاَ يَجِدُونَ

فِى الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ .

فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ .

ثُمَّ يُقَالُ : لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّى بَرَكَتَكِ .

فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا ، وَيُبَارَكُ فِى الرِّسْلِ(اللبن) ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِى الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِى الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ .

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ" .

رواه مسلم : ٧٥٦٠ .

غريب الحديث:

يرغب : يدعو .

الزلفة : المكان يحفر ليحبس فيه ماء السماء وقيل المرآة .

الزهم : الريح المنتنة .

السارحة : الماشية .

اليعاسيب : جمع يعسوب وهو ذكر النحل .

عاث : أفسد .

الفئام : الجماعة الكثيرة .

الفخذ : حي الرجل إذا كان من أقرب عشيرته .

الفرسى : جمع الفريس وهم القتلى .

القحف : القشر .

القطط : شديد جعودة شعر الرأس .

يكن : يستر .

الممحل : المجدب المقحط .

الْمدر : القرى والأمصار واحدتها مدرة .

ينسلون : يخرجون مسرعين .

النغف : جمع النغفة ، وهو دود يوجد في أنوف الإبل والغنم فتموت به في أقرب وقت .

يتهارجون : يجامعون النساء بحضرة الناس .

الوبَر : البيت المتخذ من صوف الإبل والمراد أهل البادية .

مَهْرُودَتَيْنِ : حلتان جميلتان فيهما لون أصفر خفيف جميل .

الحدب : الغليظ من الأرض في ارتفاع .

البخت : واحدتها البختية وهي : الناقة طويلة العنق ذات

السنامين.

اللقحة : الناقة ذات اللبن قريبة العهد بالولادة.

ومن الأحاديث الأخرى في نزوله عليه الصلاة والسلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد".

رواه البخاري: ٢١٠٩، ومسلم: ٤٠٦.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: " وَاللَّهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلاً ، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلاَصُ(يترك أصحاب الإبل خيارها لزهدهم في الدنيا) فَلاَ يُسْعَى عَلَيْهَا ، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ ، وَالتَّبَاغُضُ ، وَالتَّحَاسُدُ ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلاَ يَقْبَلُهُ أَحَدٌ".

رواه مسلم: ٤٠٨.

عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ.

فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟

قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ.

قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ:

الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ".

رواه مسلم: ٧٤٦٧.

وعَنْ حَنْظَلَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا(أي يجمع بين الحج والعمرة)".

رواه مسلم: ٣٠٨٩.

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قالُ: سَمِعْتُ النبي صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أمتي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم، فَيَقُولُ: أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا.

فَيَقُولُ: لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ

الأُمَّةَ".

رواه مسلم: ٤١٢.

وفي رواية عند البخاري(٣٤٤٩):

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ".

وهذا لا يتعارض مع الحديث الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَأَمَّكُمْ".

رواه مسلم: ٤١٠.

فالمقصود من الحديث أن عيسى أمهم بمعنى: حكمهم بكتاب الله، فالإمامة هنا إمامة السلطان، وليست إمامة الصلاة لأنه جاء التصريح بأن عيسى سيكون مأموما خلف واحد من هذه الأمة:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه".

قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٩٣):

عزاه السيوطي في " الجامع " لأبي نعيم في " كتاب المهدي " عن أبي سعيد وقال المناوي : " وفيه ضعف " .

وأقول : لم يتيسر لي حتى الآن الوقوف على إسناده ، ومع ذلك فالحديث عندي صحيح لأنه جاء مفرقا في أحاديث . أ ه .

وهذا أيضا فيه رد على الذين يزعمون أن عيسى ينزل نبيا، فكيف

تقولون بأن نبيكم هو آخر الأنبياء؟

نقول: أن عيسى ينزل ليحكم الناس بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه حتى في الإمامة يرفض إمامة الناس، بل يجعل نفسه مأموما خلف المسلمين.

فعن ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عِصَابَتَانِ مِنْ أُمَّتِي أَحْرَزَهُمْ اللَّهُ مِنْ النَّارِ: عِصَابَةٌ تَغْزُو الْهِنْدَ، وَعِصَابَةٌ تَكُونُ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام".

رواه أحمد: ٢١٣٦٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ١٩٣٤.

والشاهد في الحديث قوله: من أمتي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ، أَوْ بِدَابِقَ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ.

فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لاَ وَاللَّهِ لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا.

فَيُقَاتِلُونَهُمْ فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا.

فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطُنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا

سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ في أَهْلِيكُمْ.

فَيَخْرُجُونَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَإِذَا جَاءُوا الشام خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُمْ(إمامة سلطان وليس إمامة صلاة كما أسلفنا) فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ في الْمَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لاَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ في حَرْبَتِهِ".

رواه مسلم: ٧٤٦٠.

والسر في الإصرار على قتله أن الناس ربما لا يصدقون موته إلا إذا رأوه مقتولا، فالقتل أبلغ من الموت، خصوصا لمجرم مثل الدجال.

رسولنا يصف لنا عيسى ابن مريم.

التقى رسولنا صلى الله عليه وسلم بعيسى ابن مريم في رحلة الإسراء والمعراج، كما أخبرنا بذلك عليه الصلاة والسلام، فيما رواه الإمام البخاري: (٣٠٣٥)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

. . . . . فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا ، قيل: من هذا؟

قال : جبريل .

قيل : من معك؟

قال : محمد .

قيل : وقد أرسل إليه؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا ، ولنعم المجيء جاء .

فأتيت على آدم فسلمت عليه ، فقال : مرحبا بك من ابن ونبي .

فأتينا السماء الثانية ، قيل : من هذا؟

قال : جبريل .

قيل : من معك؟

قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل : أرسل إليه؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على عيسى ويحيى ، فقالا : مرحبا بك من أخ ونبي . . . . " .

وقد أخبرنا عليه الصلاة والسلام ببعض صفاته الخلقية ، فمنها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب رجل (بكسر

الجيم) شعره ليس مجعدا ولا أملسا بين ذلك كأنه من رجال شنوءة(اسم قبيلة).

ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس.

وأنا أشبه ولد إبراهيم به.

ثم أتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر فقال اشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقيل أخذت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك".

رواه البخاري: ٣٢١٤.

غريب الحديث:

ضرب: نحيف خفيف اللحم.

ربعة: لا طويل ولا قصير.

أحمر: لونه أحمر إلى البياض(يقال أبيض مشرب بالحمرة).

كأنما خرج من ديماس: متدفق حيوية ونشاطا كأنما خرج من حمام(مغتسل).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"رأيت ليلة أسري بي موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة.

ورأيت عيسى رجلا مربوعا مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس.

ورأيت مالكا خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه(أي لرسول الله) «فلا تكن في مرية من لقائه»(أي لقاء موسى عليه السلام).

رواه البخاري: ٣٠٦٧، مسلم: ٤٣٧.

غريب الحديث:

آدم: أسمر.

طوالا: طويل.

جعدا: مجعد الشعر.

مربوعا: لا قصيرا ولا طويلا.

مربوع الخلق: معتدل الخلقة كسابقتها.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه و سلم: "رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى: فأحمر جعد(في شعره انثناء) عريض الصدر، وأما موسى: فآدم جسيم سبط (طويل الشعر)كأنه من رجال الزط (بضم الزاي وتشديد الطاء ، وهم رجال طوال من السودان).

رواه البخاري: ٣٢٥٥.

وعن نافع قال عبد الله: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يوما بين ظهري الناس المسيح الدجال فقال: "إن الله ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم، كأحسن ما يرى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا؟

فقالوا: هذا المسيح بن مريم.

ثم رأيت رجلا وراءه جعدا قططا أعور العين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن واضعا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا؟

قالوا: المسيح الدجال".

رواه البخاري: ٣٢٥٦.

غريب الحديث:

بين ظهراني الناس: جالسا في وسط الناس ظاهرا لهم لا مستخفيا عنهم.

عنبة طافية: العنبة الطافية هي الحبة الكبيرة التي خرجت عن أخواتها.

لمته: هي الشعر إذا جاوز شحم الأذنين سميت بذلك لأنها ألمت بالمنكبين.

قططا : شديد جعودة الشعر .

بابن قطن : هو عبد العزى بن قطن بن عمرو الجاهلي الخزاعي ، وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها ، مات في الجاهلية كما قال الإمام الزهري .

فتح الباري : ٦/ ٤٨٨ .

وبذلك تكتمل الصورة الخلقية لعيسى عليه الصلاة والسلام :

فهو رجل متوسط القامة ، لونه أبيض مشرب بالحمرة ، شعر رأسه ممتد إلى منكبيه ، وجهه متدفق حيوية كأنما خرج من مغتسل .

*وإذا كانت هذه أوصافه الخلقية غاية في الجمال ، فأوصافه الدينية بلغ فيها مرتبة الكمال الإيماني التي يبلغها الأنبياء .

وقد وصف لنا رسولنا عليه الصلاة والسلام أنه بلغ من عيسى لتعظيمه لله تعالى أنه يكذب عينه التي يرى بها لأجل رجل حلف بالله كاذبا .

فعن أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق ، فقال له : أسرقت؟

قال : كلا والله الذي لا إله إلا هو .

فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني" .

رواه البخاري : ٣٢٦٠ ، ومسلم : ٢٣٦٨ .

موت عيسى عليه الصلاة والسلام.

لقد حدد لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم المدة التي يعيشها عيسى عليه الصلاة والسلام بعد نزوله على الأرض.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ليس بيني وبين عيسى نبي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل.

فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون".

رواه أبو داود: ٣٧٦٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٥٣٨٩.

ولا تعارض بين هذا الحديث وبين بعض الأحاديث التي فيها تحديد المدة بسبع سنين، ومنها رواية مسلم(٧٥٦٨):

عن عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، وَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ، تَقُولُ: إِنَّ

السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا.

فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّه، أَوْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لاَ أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا إِنَّمَا قُلْتُ إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا يُحَرَّقُ الْبَيْتُ وَيَكُونُ وَيَكُونُ.

ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ لاَ أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ (سيد ثقيف) فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ.

ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشام فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ".

فالسبع سنين ليس بين اثنين عداوة، وليس للبث عيسى في الأرض.

العيشة بعد عيسى

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "طوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح، يؤذن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات، فلو بذرت حبك على الصفا لنبت، ولا

تشاح ، ولا تحاسد ، ولا تباغض ، حتى يمر الرجل على الأسد ولا يضره ، ويطأ على الحية فلا تضره ، ولا تشاح ، ولا تحاسد ، ولا تباغض" .

قال الألباني في السلسلة الصحيحة(١٩٢٦) :

رواه أبو بكر الأنباري في حديثه : (ج ١ ورقة ٦ / ١ - ٢) ، . . . . . ورواه الضياء في "المنتقى من مسموعاته بمرو" (١٢٧ / ١ - ٢) من طريق أبي جعفر البغدادي : حدثنا جعفر بن محمد به .

قلت : فالإسناد صحيح . أ هـ.

رسولنا يحملنا أمانة.

هذه أمانة من رسولنا صلى الله عليه وسلم يحملها لمن أدرك عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان : أن يبلغه السلام من رسولنا صلى الله عليه وسلم .

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أدرك منكم عيسى ابن مريم فَلْيُقْرِئْهُ مني السلام" .

رواه الحاكم : ٨٦٣٥، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة : ٢٣٠٨ .

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ

لقد اختلف الناس في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام وكل يروي قصته :

فمن حاقد يفتخر بقتله ، إلى متأسف على قتله ، وكلاهما كافر ، لأن القول الحق في أمره هو الذي أخبر به رب العالمين ، فما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

وقد عقب سبحانه في ختام الآيات التي تحدثت عن عيسى بقوله :

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤ مريم :) :

هذا هو القول الصحيح في عيسى ، وهذه قصته التي اختلف فيها الناس من بعد ، لأنه :

"مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (مريم : ٣٥) :

فليس له سبحانه حاجة في الولد ، لأن فائدة الولد أمران :

١ . أن يحمل اسمك بعد موتك ، والله لا يحتاج إلى هذا لأنه حي لا يموت .

٢ . أن يعينك على مشاق الحياة ويدافع عنك إذا هاجمك عدو ، والله هو الغني عن العالمين فلا يحتاج إلى واحد من خلقه ،

فلله العزة جميعا .

لذا قال بعدها : » وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (مريم : ٣٦) .

ولكن ماذا حصل من الناس والفرق والأحزاب؟

"فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ" : وهم اليهود والنصارى أساسا وسائر الملل الأخرى ، وحتى النصارى منقسمون إلى ملل كثيرة .

وما دام أنهم لم يؤمنوا بما جاء به الله من الحق ، فليرتقبوا يوم القيامة :

" فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (مريم : ٣٧) .

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا : فما أسمعهم وما أبصرهم للحق يوم يأتون للقاء المولى سبحانه ، لأنهم في الدنيا قد أغلقوا عيونهم وآذانهم عن سماع الحق .

«لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ (في الدنيا) فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ» (مريم : ٣٨) .

وماذا ينفع الندم يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي تكثر فيه الحسرات :

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (مريم : ٣٩) .

فالحقيقة التي عليهم أن يعرفوها جيدا :

«إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» (مريم : ٤٠) .

لطائف قرآنية:

الأولى:

لماذا ذكر مع عيسى ابن مريم، همزة ابن ، مع أنها لا تذكر إذا وقعت بين علمين؟

الجواب: لأنها لا تذكر إلا إذا وقعت بين العلم ونسب أبيه(اسم الرجل أو البنت واسم الأب)، وأما الأم فتذكر ، كما نقول: الحسن ابن فاطمة.

الثانية:

ذكر القرآن أن موسى عليه الصلاة والسلام قال لقومه: "يا قوم".

بينما قال عيسى عليه الصلاة والسلام: "يا بني إسرائيل".

لأن الإنسان ينسب إلى أبيه وعائلة أبيه، وعيسى عليه الصلاة والسلام ليس له أب فينسب إلى أمه، وأما موسى عليه الصلاة والسلام فهو ابن عمران.

المبحث الثاني:

شاهد يوسف

تمهيد:

يوسف بن يعقوب بن إسحق بن خليل الله إبراهيم عليهم جميعا الصلاة والسلام، الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم كما وصفه رسولنا صلى الله عليه وسلم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: « الْكَرِيمُ بْنُ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ».

رواه البخاري: ٤٦٨٨.

وقصته مشهورة معروفة وردت في كتاب الله تعالى، وجمعتها سورة واحدة من دون قصص الأنبياء سميت باسمه: سورة يوسف.

وبما أننا لسنا في صدد الحديث عن قصة يوسف وتفاصيلها، وهي مبسوطة في كتب كثيرة، وقد اعتنى بها العلماء عناية بالغة، بسطا وتحليلا.

إلا أننا سنأخذ اليسير المقتضب من هذه القصة، الذي يوصلنا إلى الهدف من هذا الكتاب، ألا وهو ذاك الشاهد الذي أنطقه الله وهو في المهد، ليعلن براءة نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام من اتهام امرأة العزيز.

نبذة عن حياة نبي الله يوسف وصولا للشاهد [٢]

نشأة يوسف عليه السلام

ولد يوسف عليه الصلاة والسلام لأبيه يعقوب، وكان له إحد عشر أخا، وكان أبوه يحبه كثيرا ويعطف عليه لصغره.

وفي ذات ليلة رأى في المنام: أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين، فقص على والده ما رأى، فأدرك والده (نبي الله يعقوب عليه السلام) ببصيرته أن وراء هذه الرؤية شأنا عظيما لهذا الغلام.

فطلب منه ألا يقصها على إخوته حتى لا يكيدوا له، ويغاروا من أخيهم الصغير (غير الشقيق)، حيث تزوج يعقوب من امرأة ثانية أنجبت له يوسف وشقيقه، فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلئ نفوسهم بالحقد، فيدبروا له أمرا يسوؤه.

قال تعالى: « إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ

٢ من موقع cipot-521t/moc.7ooy.yad2bonot، بتصرف.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (يوسف: ٥، ٤).

استجاب يوسف لتحذير أبيه، ولم يحدث أخوته بما رأى، وأغلب الظن أنهم كانوا يكرهونه إلى الحد الذي يصعب فيه أن يطمئن إليهم، ويحكي لهم دخائله الخاصة وأحلامه. وقد سجل القرآن الحقد الذي بلغوه على يوسف عليه الصلاة والسلام، فقال الله سبحانه حكاية عن تآمرهم: " اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ" (يوسف: ٩).

اجتمع أخوة يوسف يتحدثون في أمره: "إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ" (يوسف: ٨).

فأبونا مخطئ في تفضيل هذين الصبيين على مجموعة من الرجال النافعين، فاقترح أحدهم حلا للموضوع: اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا.

ولماذا هذا كله؟

حتى لا يراه أبوه فينساه فيوجه حبه كله لهم، ومن ثم يتوبون عن جريمتهم: "وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ".

قال قائل منهم (حرك الله أعماقه بشفقة خفية): ما الداعي لقتله؟ إن كنتم تريدون الخلاص منه، فلنلقه في بئر تمر عليها القوافل،

ستلتقطه قافلة وترحل به بعيدا، ويتحقق المطلوب: سيختفي عن وجه أبيه.

انهزمت فكرة القتل، واختيرت فكرة النفي والإبعاد.

نفهم من هذا أن الأخوة، رغم شرهم وحسدهم، كان في قلوبهم، أو في قلوب بعضهم، بعض خير لم يمت بعد.

إخوة يوسف ينفذون مخططهم:

توجه الأبناء لأبيهم يطلبون منه السماح ليوسف بمرافقتهم، دار الحوار بينهم وبين أبيهم بنعومة وعتاب خفي، وإثارة للمشاعر: مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ؟

أيمكن أن يكون يوسف أخانا، وأنت تخاف عليه من بيننا ولا تستأمننا عليه، ونحن نحبه وننصح له ونرعاه؟

لماذا لا ترسله معنا يرتع ويلعب؟

وردا على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب عليه السلام ينفي بطريقة غير مباشرة أنه لا يأمنهم عليه، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب: "قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُون".

ففندوا فكرة الذئب الذي يخاف أبوه أن يأكله: نحن عشرة من الرجال، فهل نغفل عنه ونحن كثرة؟

وبالتالي سنكون خاسرين غير أهل للرجولة لو وقع ذلك.

لن يأكله الذئب ولا داعي للخوف عليه.

وافق الأب تحت ضغط أبنائه، ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته سبحانه!

ومن هنا تبدأ المحنة الأولى ليوسف عليه الصلاة والسلام. خرج الأخوة ومعهم يوسف، وأخذوه للصحراء، اختاروا بئرا لا ينقطع عنها مرور القوافل وحملوه وهموا بإلقائه في البئر، وأوحى الله إلى يوسف أنه ناج فلا يخاف، وأنه سيلقاهم بعد يومهم هذا وينبئهم بما فعلوه.

عند العشاء جاء الأبناء باكين ليحكوا لأبيهم قصة الذئب المزعومة، أخبروه بأنهم ذهبوا يستبقون، فجاء ذئب على غفلة، وأكل يوسف.

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها من المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم!

ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب دليلا على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس، وهم ينفونها.

فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف

للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس!

وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان، ونسوا في انفعالهم أن يمزقوا قميص يوسف كما هو ظاهر الآيات: جاءوا بالقميص كما هو سليما، ولكن ملطخا بالدم. وانتهى كلامهم بدليل قوي على كذبهم حين قالوا: "وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ".

أي: وما أنت بمطمئن لما نقوله، ولو كان هو الصدق، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقوله.

أدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، ومن الأكذوبة الواضحة، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم دبروا له مكيدة ما، وأنهم يلفقون له قصة لم تقع، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرا منكرا، وذللته ويسرت لهم ارتكابه، وأنه سيصبر متجملا لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب: "قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ".

أثناء وجود يوسف بالبئر، مرت عليه قافلة في طريقها إلى مصر، توقفوا للتزود بالماء، وأرسلوا أحدهم للبئر فأدلى الدلو فيه، تعلق يوسف به، ظن من دلاه أنه امتلأ بالماء فسحبه، ففرح بما رأى، رأى غلاما متعلقا بالدلو.

فرح به من وجده في البداية، ثم زهد فيه حين فكر في همه ومسؤوليته، وزهد فيه لأنه وجده صبيا صغيرا، وعزم على التخلص منه لدى وصوله إلى مصر.

ولم يكد يصل إلى مصر حتى باعه في سوق الرقيق بثمن زهيد: دراهم معدودة. ومن هناك اشتراه رجل تبدو عليه الأهمية.

المحنة الثانية ليوسف.

انتهت المحنة الأولى في حياة هذا النبي الكريم، لتبدأ المحنة الثانية:

يكشف الله تعالى مضمون القصة البعيد في بدايتها: "وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ".

لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف، من حين التقاطه من البئر، صار عبدا يباع في الأسواق، اشتراه رجل من مصر، صار مملوكا لهذا الرجل، انطبقت المأساة، وصار يوسف بلا حول ولا قوة له إلا بالله.

ولكن تتداركه عناية الله تعالى، كيف؟

يلقي الله محبته على صاحبه الذي اشتراه، وها هو ذا السيد يقول لزوجته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.

وليس هذا السيد رجلا هين الشأن.. إنما هو رجل مهم.. رجل

من الطبقة الحاكمة في مصر، يأتي في المرتبة الثانية بعد الملك، سماه القرآن: "العزيز".

وهكذا مكن الله ليوسف في الأرض.. سيتربى كصبي في بيت رجل يحكم.. وسيعلمه الله من تأويل الأحاديث والرؤى.. وسيحتاج إليه الملك في مصر يوما. (وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ). تم هذا كله من خلال فتنة قاسية في باطنها شر، ولكن جعل الله فيها الخير كله. ثم يبين لنا المولى عز وجل كرمه على يوسف فيقول: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (يوسف: ٢٢). كان يوسف أجمل رجل في عصره، وكان نقاء أعماقه، وصفاء سريرته يضفيان على وجهه مزيدا من الجمال.

وأوتي صحة الحكم على الأمور.. وأوتي علما بالحياة وأحوالها. وأوتي أسلوبا في الحوار يخضع قلب من يستمع إليه.. وأوتي نبلا وعفة، جعلاه شخصية إنسانية لا تقاوم.

وأدرك سيده أن الله قد أكرمه بإرسال يوسف إليه، واكتشف أن يوسف أكثر من رأى في حياته أمانة واستقامة وشهامة وكرما.. وجعله سيده مسؤولا عن بيته وأكرمه وعامله كابنه.

ومن هنا تبدأ المحنة الجديدة ليوسف، وهي أشد وأعمق من المحنة الأولى.

جاءته وقد أوتي صحة الحكم ، وأوتي العلم والإيمان رحمة من الله ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه .

يذكر الله تعالى هذه المحنة فيقول : "وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (يوسف : ٢٣، ٢٤) .

ومن سياق الفهم أن يوسف كان في سن الشباب، بالغ الجمال، وزوجة العزيز تكبره لأنه : لما التقطوه من البئر كانت متزوجة وهو صبي .

لنتدبر كلمات هذه الآيات : وَرَاوَدَتْهُ : صراحة (عَن نَّفْسِهِ)، وغلقت الأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ : تعال وأقبل إلي .

هذا يعني أنه كانت هناك مرات سابقة فر فيها منها، مرات سابقة لم تكن الدعوة فيها بهذه الصراحة وهذا التعري .

ثم يتجاوز السياق القرآني الحوار الذي دار بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام، وهذا من الأدب العظيم الذي نتعلمه من القرآن .

ولنا أن نتصور كيف حاولت إغراءه إما بلباسها أو كلماتها أو

حركاتها.

لكن ما يهمنا هنا هو موقف يوسف عليه السلام من هذا الإغواء. يقف هذا النبي الكريم في وجه سيدته قائلا: "قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ".

أعيذ نفسي بالله أن أفعل هذا مع زوجة من أكرمني بأن نجاني من الجب، وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن.

ولو فعلت هذا فإني ظالم، ولا يفلح الظالمون الذين يتجاوزون حدود الله، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه.

قال تعالى: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ":

لا خلاف أن همها كان هم معصية، ولكن همه بها قد يكون، إما:

١. هم بها يقصد المعصية ولم يفعل، وهذا يمكن أن يتعرض له أي بشر، وليس في هذا منقصة ليوسف عليه الصلاة والسلام، بل هو دليل واضح على بشريته، ويشكر على ذلك: لأنه في مقتبل شبابه، ودواعي الشهوة موجودة، والمرأة ذات منصب يطمع بمثلها، ولكنه ترك ذلك لوجه الله.

٢. أو: هم بها ليضربها.

٣. أو: كان الهم حركة نفسية داخل نفس يوسف.

٤ . أو : أن هناك تقديما وتأخيرا في الآية، بمعنى : ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها .

«كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) : وهذه الآية التي تثبت أن يوسف من عباد الله المخلصين، تقطع في نفس الوقت بنجاته من سلطان الشيطان .

لأن الشيطان وعد أن يغوي بني آدم ، إلا المخلصين منهم .

ويبدو أن يوسف عليه السلام آثر الانصراف متجها إلى الباب حتى لا يتطور الأمر أكثر .

لكن امرأة العزيز لحقت به لتمسكه، تدفعها الشهوة لذلك . فأمسكت قميصه من الخلف، فتمزق في يدها .

وهنا تقع المفاجأة :

فتح الباب زوجها العزيز ، وهنا تجد المرأة المتجملة نفسها في موقف صعب، فلا بد من إجابة فورية على السؤال البديهي الذي يطرح الموقف .

فتقول متهمة الفتى : "قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" .

واقترحت هذه المرأة العاشقة سريعا العقاب المأمون الواجب تنفيذه على يوسف .

ولماذا العقاب المأمون؟

خشية أن يفتك به العزيز في موقف كهذا.

وما كان من يوسف عليه الصلاة والسلام إلا أن يجهر بالحقيقة ليدافع عن نفسه: "قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي" تجاوز السياق القرآني رد الزوج، لكنه بين كيفية تبرئة يوسف عليه السلام من هذه التهمة الباطلة:

وهنا تحدث المعجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام:

طفل يتكلم في المهد ليعلن براءة يوسف

قال سبحانه: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ»(يوسف: ٢٦، ٢٩).

يأتي شاهد ليشهد مع يوسف ويعلن براءته، إنه طفل يتكلم في المهد، لا ندري هل كان ابنا للعزيز، أم ابنا لأحد حاشيته المقربين، المهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنه طفل في المهد:

والدليل على ذلك:

حديث ابن عباس رضي لله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت: ما

هذه الرائحة ؟

فقالوا : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها .

كانت تمشطها فوقع المشط من يدها فقالت : بسم الله .

فقالت ابنته : أبي؟

فقالت : لا بل ربي وربك و رب أبيك .

فقالت : أخبر بذلك أبي .

قالت : نعم، فأخبرته فدعا بها وبولدها .

فقالت له : إليك حاجة ؟

فقال : ما هي ؟

قالت : تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفننا جميعا .

فقال : ذلك لك علينا من الحق .

فأتى بأولادها فألقوا واحدا واحدا ، حتى إذا كان آخر ولدها ، وكان صبيا مرضعا، فقال : اصبري يا أماه فإنك على الحق، ثم ألقيت مع ولدها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم أربعة وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم عليه السلام" .

رواه الحاكم : ٣٨٣٥، وقال هذا حديث صحيح الإسناد، وصححه الذهبي في التلخيص : (المستدرك مع تعليقات الذهبي :

٢/ ٥٣٨).

وقد ذكر القرآن أن الشاهد أمرهم بالنظر للقميص، فإن كان ممزقا من الأمام فذلك من أثر مدافعتها له، وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب.

وإن كان قميصه ممزقا من الخلف فهو إذن من أثر تملصه منها، وتعقبها هي له حتى الباب، فهي كاذبة وهو صادق. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (يوسف: ٢٨).

فتأكد الزوج من خيانة زوجته عندما رأى قميص يوسف ممزقا من الخلف. لكن الدم لم يثر في عروقه ولم يصرخ ولم يغضب.

وقد فرضت عليه قيم الطبقة الراقية التي وقع فيها الحادث أن يواجه الموقف بلباقة وتلطف، فيها شيء من عدم الغيرة على الأعراض.

فكان الحل عنده أن ينسب ما فعلته زوجته إلى كيد النساء عموما، وصرح بأن كيد النساء عموما عظيم: (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ).

بعدها التفت الزوج إلى يوسف قائلا له: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا): أهمل هذا الموضوع، ولا تعره اهتماما، ولا تتحدث به، فالمهم عند هذه الطبقة المحافظة على الظواهر.

ثم يوجه موعظة مختصرة للمرأة التي ضبطت متلبسة بمراودة

فتاها عن نفسه ، وشراستها بتمزيق قميصه : (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِين) .

وهكذا ينتهي المشهد المهم الذي نريده من هذه القصة : **قضية الشاهد الطفل الذي شهد وهو في المهد ، وأعلن براءة يوسف .**

ولسنا في صدد تكملة أحداث القصة لأنها طويلة .

ولكن نقول باختصار :

أن يوسف عليه الصلاة والسلام تعرض للسجن بعد هذه المحنة ، وفي السجن أوَّل رؤيا الملك الشهيرة ، ومكن الله له في الأرض .

حيث قدر سبحانه أن يكون يوسف مسؤول المالية عند ذاك الملك ، والتقى بإخوته وهم لا يعرفونه ، وامتحنهم بسرقة صواع الملك ليعرفهم بعدها على نفسه ، بعدما ازدادت محنة أبيه النفسية بفقد ولديه .

ثم يلتقي بأبيه وإخوانه مرة أخرى ليجد ما رآه في منامه وهو صغير ، قد جعله ربي حقا .

ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتاب الله تعالى ، وكتب التفسير ، وقصص القرآن فإنها فصلت قصته .

المبحث الثالث:

الغلام الذي تكلم في المهد في قصة أصحاب الأخدود

تمهيد:

قصة أصحاب الأخدود وردت مختصرة في كتاب الله تعالى في سورة البروج.

قال تعالى: » قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (البروج: ٤ - ١١).

وقد جاءت تفصيلاتها في سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

إنها قصة فئة آمنت بربها، واستعلت بإيمانها أمام أعداء جبارين مستهترين بحق الإنسان في التمتع بدينه الحق.

وقد جعلت هذه الفئة الناس ألعوبة يلعبون بهم كيفما شاؤوا، وأغرقوهم بالسحر والشعوذة، ولكن كما قيل: رجل عنده همة يحيي أمة.

فكانت هداية الجماهير على يد غلام، تمكن الإيمان من قلبه.

وهي قصة ذات معان عظيمة، منها: يتعلم الدعاة التضحية في سبيل الله، حتى لو أدى ذلك إلى ذهاب النفس.

وكيف يأتي الله بنيان الكفرة المتكبرين (ولو كانوا ملوكا) من القواعد، فيخر عليهم السقف من فوقهم ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون.

وتحدث الكرامة الإلهية التي نحن بصدد الحديث عنها، والتي هي صلب موضوعنا: عندما يتكلم الطفل في المهد، ليدل أمه على أن العيش عيش الآخرة، وأن متاع الدنيا بسيط مهما ظن الناس أنها طويلة.

لنقف على الحديث الشريف ونأخذ منه الدروس والعبر.

عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ.

فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حبسني أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حبسني السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ،

فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ الساحر أَفْضَلُ أَم الرَّاهِبُ أَفْضَلُ .

فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ .

فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ .

فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِن ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ .

وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ .

فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ ، فَقَالَ : مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي .

فَقَالَ : إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ .

فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ .

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟

قَالَ : رَبِّي .

قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟

قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ .

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ .

فجيء بِالْغُلاَمِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا

تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ .
فَقَالَ : إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ .
فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ .
فجيء بِالرَّاهِبِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ .
ثُمَّ جيء بِجَلِيسِ الْمَلِكِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ .
ثُمَّ جيء بِالْغُلاَمِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ .
فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ .
فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟
قَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ .
فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ .
فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ .
فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ.

فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ.

فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ».

رواه مسلم: ٧٧٠٣.

وفي رواية الترمذي(٣٢٦٣):

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: . . . . . كَانَ مَلِكٌ مِنْ الْمُلُوكِ، وَكَانَ لِذَلِكَ الْمَلِكِ كَاهِنٌ يَكْهَنُ لَهُ.

فَقَالَ الْكَاهِنُ: انْظُرُوا لِي غُلَامًا فَهِمًا.

أَوْ قَالَ: فَطِنًا لَقِنًا فَأُعَلِّمَهُ عِلْمِي هَذَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ فَيَنْقَطِعَ مِنْكُمْ هَذَا الْعِلْمُ، وَلَا يَكُونَ فِيكُمْ مَنْ يَعْلَمُهُ.

قَالَ: فَنَظَرُوا لَهُ عَلَى مَا وَصَفَ، فَأَمَرُوهُ أَنْ يَحْضُرَ ذَلِكَ الْكَاهِنَ، وَأَنْ يَخْتَلِفَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَلَى طَرِيقِ الْغُلَامِ رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَةٍ.

(قَالَ مَعْمَرٌ: أَحْسِبُ أَنَّ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ كَانُوا يَوْمَئِذٍ مُسْلِمِينَ).

قَالَ: فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَسْأَلُ ذَلِكَ الرَّاهِبَ كُلَّمَا مَرَّ بِهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَخْبَرَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَعْبُدُ اللَّهَ.

قَالَ: فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَمْكُثُ عِنْدَ الرَّاهِبِ، وَيُبْطِئُ عَنْ الْكَاهِنِ، فَأَرْسَلَ الْكَاهِنُ إِلَى أَهْلِ الْغُلَامِ: إِنَّهُ لَا يَكَادُ يَحْضُرُنِي.

فَأَخْبَرَ الْغُلَامُ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: إِذَا قَالَ لَكَ الْكَاهِنُ: أَيْنَ كُنْتَ؟

فَقُلْ: عِنْدَ أَهْلِي.

وَإِذَا قَالَ لَكَ أَهْلُكَ: أَيْنَ كُنْتَ؟ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكَ كُنْتَ عِنْدَ

الْكَاهِنِ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا الْغُلَامُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ مَرَّ بِجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ كَثِيرٍ قَدْ حَبَسَتْهُمْ دَابَّةٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ تِلْكَ الدَّابَّةَ كَانَتْ أَسَدًا.

قَالَ: فَأَخَذَ الْغُلَامُ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ الرَّاهِبُ حَقًّا فَأَسْأَلُكَ أَنْ أَقْتُلَهَا.

قَالَ: ثُمَّ رَمَى، فَقَتَلَ الدَّابَّةَ.

فَقَالَ النَّاسُ: مَنْ قَتَلَهَا؟

قَالُوا: الْغُلَامُ، فَفَزِعَ النَّاسُ، وَقَالُوا: لَقَدْ عَلِمَ هَذَا الْغُلَامُ عِلْمًا لَمْ يَعْلَمْهُ أَحَدٌ.

قَالَ: فَسَمِعَ بِهِ أَعْمَى، فَقَالَ لَهُ: إِنْ أَنْتَ رَدَدْتَ بَصَرِي فَلَكَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ لَهُ: لَا أُرِيدُ مِنْكَ هَذَا، وَلَكِنْ أَرَأَيْتَ إِنْ رَجَعَ إِلَيْكَ بَصَرُكَ أَتُؤْمِنُ بِالَّذِي رَدَّهُ عَلَيْكَ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ فَرَدَّ عَلَيْهِ بَصَرَهُ فَآمَنَ الْأَعْمَى، فَبَلَغَ الْمَلِكَ أَمْرُهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ.

فَقَالَ: لَأَقْتُلَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ قِتْلَةً لَا أَقْتُلُ بِهَا صَاحِبَهُ فَأَمَرَ بِالرَّاهِبِ، وَالرَّجُلِ الَّذِي كَانَ أَعْمَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى مَفْرِقِ أَحَدِهِمَا فَقَتَلَهُ، وَقَتَلَ الْآخَرَ بِقِتْلَةٍ أُخْرَى.

ثُمَّ أَمَرَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَأَلْقُوهُ

مِنْ رَأْسِهِ ، فَانْطَلَقُوا بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ ، فَلَمَّا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوهُ مِنْهُ ، جَعَلُوا يَتَهَافَتُونَ مِنْ ذَلِكَ الْجَبَلِ ، وَيَتَرَدَّوْنَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الْغُلَامُ .

قَالَ : ثُمَّ رَجَعَ ، فَأَمَرَ بِهِ الْمَلِكُ أَنْ يَنْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْبَحْرِ فَيُلْقُونَهُ فِيهِ ، فَانْطُلِقَ بِهِ إِلَى الْبَحْرِ ، فَغَرَّقَ اللَّهُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَأَنْجَاهُ .

فَقَالَ الْغُلَامُ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَا تَقْتُلُنِي حَتَّى تَصْلُبَنِي وَتَرْمِيَنِي ، وَتَقُولَ إِذَا رَمَيْتَنِي : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ هَذَا الْغُلَامِ .

قَالَ : فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ، ثُمَّ رَمَاهُ ، فَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ هَذَا الْغُلَامِ ، قَالَ : فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى صُدْغِهِ حِينَ رُمِيَ ثُمَّ مَاتَ .

فَقَالَ أُنَاسٌ : لَقَدْ عَلِمَ هَذَا الْغُلَامُ عِلْمًا مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ فَإِنَّا نُؤْمِنُ بِرَبِّ هَذَا الْغُلَامِ .

قَالَ : فَقِيلَ لِلْمَلِكِ : أَجَزِعْتَ أَنْ خَالَفَكَ ثَلَاثَةٌ ، فَهَذَا الْعَالَمُ كُلُّهُمْ قَدْ خَالَفُوكَ .

قَالَ : فَخَدَّ أُخْدُودًا ثُمَّ أَلْقَى فِيهَا الْحَطَبَ وَالنَّارَ ، ثُمَّ جَمَعَ النَّاسَ ، فَقَالَ : مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ تَرَكْنَاهُ ، وَمَنْ لَمْ يَرْجِعْ أَلْقَيْنَاهُ فِي هَذِهِ النَّارِ ، فَجَعَلَ يُلْقِيهِمْ فِي تِلْكَ الْأُخْدُودِ .

قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ : " قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ حَتَّى بَلَغَ : الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ "

قَالَ : فَأَمَّا الْغُلَامُ فَإِنَّهُ دُفِنَ فَيُذْكَرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ

الْخَطَّابِ وَأُصْبُعُهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ".

قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ

وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٢٦٦١، دون قوله: «يقول الله.....

ورواه النسائي في السنن الكبرى: ١١٦٦١، وأحمد في مسنده: ٢٢٨٠٥.

معاني بعض الكلمات:

الأكمه: الذي خلق أعمى.

المئشار: المنشار.

القرقور: السفينة، قيل: الصغيرة، وقيل: الكبيرة.

انكفأت: انقلبت.

الصعيد: وجه الأرض.

الأخدود: الشق العظيم في الأرض.

تقاعست: توقفت ولزمت موضعها، وامتنعت عن التقدم.

الكنانة: الوعاء الذي يوضع فيه السهام.

كبد القوس: وضع السهم من القوس قبل إطلاقه.

أفواه السكك: مداخل الطرق.

الهمس: الكلام الخفي الذي لا يكاد يسمع.

اللقن: الرجل الذكي.

الصدغ: ما بين العين والأذن.

النهاية في غريب الأثر: ٥/ ٦٣٦ ، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم : ص ٢٣٢ ، صحيح القصص النبوي: ٣٠٨ .

تحليل القصة وفوائدها [٣].

نلاحظ أن سورة البروج المكية بدأت بالقسم، بالسماء ذات البروج: (أي النجوم العظيمة والمجرات الهائلة التي تحمل تلك النجوم).

وهذا القَسَم يتبعه قسم آخر يحمل في ثناياه تحذيرا لهؤلاء الظلمة من اليوم الموعود: يوم القيامة.

ثم يتبع ذلك قسم بالشاهد الذي يشهد على الخلائق يوم القيامة، وقد قيل: إن الشاهد يوم القيامة والمقصود به هنا: رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي الحقيقة الشهداء على الإنسان يوم القيامة كثير، فالرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الشهداء ، وخير الشهداء على البشرية

٣ شرح النووي على مسلم: ٨١/ ٥٢٤، مع قصص السابقين في القرآن للخالدي: ص٩٦٢ وما بعدها، صحيح القصص النبوي للأشقر: ص٣٠٣ وما بعدها.

عموما، وعلى أمته خصوصا، قال سبحانه: " فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا» (النساء: ٤١).

والإنسان يشهد على نفسه، فأعضاؤه تشهد بما عمل من خير أو شر، قال سبحانه: « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (يس: ٦٥).

والأرض تحدث بما جرى على ظهرها، قال سبحانه: « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» (الزلزلة: ٤-٥).

والمشهود: قد يكون يوم القيامة لأن جميع الخلائق تشهده.

وقد يراد به: الأعمال التي تكون مشهودة، يشهدها أصحابها يوم القيامة.

والآن تعالوا معنا لنحلل الحديث الشريف، ونقف على فوائد هذه القصة البطولية.

عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ:
كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ.
فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ.

١. في الحديث إشارة للزمن التاريخي الذي وقعت فيه القصة

"فيمن كان قبلكم"، في الأمم السالفة.

٢. نلاحظ حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إبهام الأشخاص، فلم يحدد لنا اسم القوم، أو المكان الذي وقعت فيه القصة، وذلك حرصا منه عليه الصلاة والسلام أن تنصرف العقول إلى الأشياء المهمة فقط، ألا وهي: العظة والعبرة.

٣. وإبهام الأشخاص فيه من الفوائد: أن تتجاوز القصة القيد التاريخي، لأنها قد تحدث في كل زمان وفي كل مكان، فالجبابرة والطواغيت في كل عصر يتفننون في تعذيب الصالحين حتى يصدوهم عن دينهم.

٤. في الحديث مواساة للصحابة الذين كانوا يعذبون على أيدي الكفرة من قريش، فهم ليسوا أول من عذب على طريق الدعوة.

٥. قوله: "ملك"، فيه إشارة إلى أعداء الدعوة في كل عصر وفي كل مصر، فهم: الملأ، الكبراء أصحاب السلطة والنفوذ من القوم.

٦. كان الملوك قديما يعتمدون على السحرة في إرساء ملكهم.

٧. يقوم السحرة بإخضاع الناس للحكام بما يبثونه بينهم من أوهام وخرافات، حتى يضللوا الشعوب ويبعدوهم عن

وعيهم وعلمهم، حتى يظل الناس عبيدا للملوك.

٨. نلاحظ حرص الساحر أن يعلم غلاما مكانه لأنه كبر سنه، وفي هذا إشارة إلى: حرص بطانة السوء أن تبقي الأوضاع كما هي مستقرة لمصلحة الملك، وهذا أمر مشاهد في كل زمان، وفيه إشارة إلى رغبة السحرة المتعاونين مع الشياطين على إفشاء السحر فيما بين الناس.

٩. وفي طلب الساحر للغلام: دلالة على أن الكيد لعنصر الشباب ليس بالأمر الجديد، فيطمسوا على فطرتهم السليمة السوية، ومحاولة إغراقهم في وحل الشياطين والسحر.

وقد وقع في رواية الترمذي: أن الساحر قد طلب غلاما نبيها، لأن: الإنسان النبيه الفطن إذا كان ساحرا، أو طاغية فإنه سوف يكون لديه الوسائل في إقناع الناس بالسحر وطاعة الملك الظالم.

١٠. أراد الملك والساحر أن يكون الغلام هو الذي يثبت دعائم الحكم الظالم، وأراد الله أن يكون الغلام خير داعية إليه، وإلى دينه، وأن يهز الله به عروش الظلمة، فحكم الله نافذ لا محالة.

فَكَانَ فِى طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ ، وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى

السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ.

فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حبسني أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ، فَقُلْ: حبسني السَّاحِرُ.

١. لقد سخر الله لذلك الغلام راهبا، ليعلم الناس أن قدرة الله نافذة، مهما خطط الطواغيت وكادوا لأهل الإيمان، فالملك والساحر أرادا للغلام أن يكون ساحرا فاسدا يدافع عن الملك وظلمه، وأراد الله أن يكون الغلام خير داعية إلى الله تعالى.

٢. وجود الراهب في المجتمع الموبوء يدل على أن كل عصر لا يخلو من الصالحين.

٣. صار الغلام يتلقى من مصدرين متناقضين، واحد يدل على الخير، والآخر يدل على الشر.

٤. الظاهر أن أسلوب الراهب كان فيه من الحكمة العظيمة حتى انسجم معه الغلام، لأن الدين الحق يحتاج إلى الحكمة في التبليغ، كما قال سبحانه: «ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (النحل: ١٢٥). وإلا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن منكم

منفرين . . . . . " رواه البخاري : ٦٦٣ ، ومسلم : ١٠٧٢ .

٥ . ضرب الساحر للغلام فيه إشارة إلى قوة انسجام الغلام مع كلام الراهب ، لأنه : يستطيع تركه ويريح نفسه من ضرب الساحر ، ولكن الحق الذي مع الراهب يوافق الفطرة السليمة .

٦ . وفي ضرب الساحر للغلام إشارة إلى بداية الابتلاء في حياة الغلام ، وأن من سلك طريق الحق فلا بد أن يبتلى .

٧ . تقدم الغلام بالشكوى إلى الراهب تدل على أن الراهب هو شيخ الغلام ، والتلميذ يطلب من شيخه حل مشاكله ، ولم تكن أبدا الشكوى بقصد التراجع عن الطريق ، وقد استجاب الراهب لطلب الغلام فقدم له الحل .

٨ . يجوز الكذب في الحالات الضرورية ، خصوصا إذا دفع الإنسان بالكذب شر الأعداء عن نفسه كما فعل الغلام .

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ .

فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ .

فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ .

١ . ولأنه غلام صغير فقد عانى من ازدواجية الأفكار فأراد أن يقطع وساوس الشيطان، ويتعرف من أفضل الساحر أم الراهب؟ رغم أنه يعلم أن أمر الراهب أحب إليه لأنه كان يتلقى منه طوعا .

٢ . شعر الغلام أن الدين الذي عند الراهب ليس نظريا فيحتاج إلى تضحية، وإلا فإنه كان يستطيع أن يأخذ من الاثنين معا فأراد أن يفصل في الأمر .

فسخر الله له هذه الدابة(وقع في رواية الترمذي أنها أسد)، ولا شك أن الأسد مما يخاف منه .

٣ . قول الغلام: اللَّهُمَّ إن كان . . . . . ، يدل على إيمانه بالله تعالى، ولكنه طلب الطمأنينة كما طلبها خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» (البقرة: ٢٦٠) .

٤ . قوله: «إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ»: يدل على قناعته بأمر الراهب لأنه بدأ به أولا، وما قال: إن كان أمر الساحر أحب . . . . .

٥ . طرح الغلام نفسه أمام الناس كداعية بهذه الخدمة الاجتماعية

، بأن قتل الدابة حتى يمر الناس، وهكذا كل داعية ناجح لا بد من تقديم أشياء عملية للناس.

٦. أجرى الله على يد الغلام كرامة باهرة، فلا يمكن في مقياس البشر أن يُقتل الأسد بحجر، ولكن الله قتله.

٧. وهذه الكرامات يجريها الله على يد أهل الإيمان: إخبارا بصدق إيمانهم وحسن سيرتهم، وصدق الدين الذي ينتمون إليه.

فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ.

١. إخبار الراهب الغلام بأنه أفضل منه يدل على مدى الإيمان الذي يتمتع به الراهب، وتجرده عن حظوظ النفس، وزهده في هذه الحياة الدنيا.

٢. كون الغلام أفضل من الراهب يدل على أن الفضل والمنزلة في الدعوة لا تكون بالسبق وطول العمر، بل بمقدار الإيمان والتقوى، وهذا أمر نلاحظه في المساجد، فتجد الشاب الذي يصلي حديثا لربما صار عنده من الإيمان أكثر من الكبير

الذي له عشرات السنوات في المسجد.

٣. التلميذ أفضل من شيخه، فقد حقق الغلام ما لم يحقق الراهب، ولكن يبقى للراهب فضل هداية الغلام، ومن دل على خير فله مثل أجر فاعله.

٤. إخبار الراهب الغلام بأنه سيبتلى فيه دلالة أن الدعوة إلى طريق الدين صعبة ، ولا بد للدعاة أن يصيبهم ما قدر الله عليهم.

٥. وإخبار الراهب الغلام بالابتلاء فيه تذكير للدعاة القدامى أن يذكروا الجدد منهم ليجهزوا أنفسهم للابتلاء، ويستعدوا خير استعداد لمواجهة أهل الباطل.

٦. أخبر الراهب الغلام أن لا يدل عليه: فيه دليل على أهمية السرية في بداية الدعوة، حتى لا يقتلها أهل الباطل.

وقد استعملها رسولنا عليه الصلاة والسلام في بداية دعوته المكية، واستعملها مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه.

وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِى النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ.

فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِىَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِى.

فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ.

فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ،

١. تتوالى الكرامات على يد الغلام من الله تعالى، تثبيتا لفؤاده، ودلالة على صدق دعوته، فإن الشيء العجيب الذي يصاحب أهل الإيمان كرامة من كرامات الصالحين، وأما الذي يصاحب الطغاة فإما سحرا، وإما كهانة وشعوذة.

٢. انتقل الغلام من الدعوة السرية إلى الدعوة العلنية.

٣. الغلام يستخدم الأسلوب الأمثل في الدعوة إلى الله: خدمة الناس، فلا بد للداعية أن يخالط الناس ويصبر على أذاهم ويخدمهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».

رواه ابن ماجه: ٤٠٢٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٩٣٩.

٤. رفض الغلام لهدايا جليس الملك يدل على صدق دينه وزهده في الدنيا، ولأنه أدعى لمحبة الناس له وقبولهم لدعوته،

فالزهد مما في أيدي الناس سبب لمحبة الله للزاهد.

٥. رد الغلام على جليس الملك بأنه لا يشفي إنما يشفي الله: يعرف الجليس على الله، وهذا واجب الجميع فالإسلام ليس للشيخ فقط كما يظن الناس.

فالطبيب داعية، والمهندس داعية، والمحاسب داعية، والمدرس مهما كانت المادة التي يدرسها داعية.

وقد حدثنا عن بعض التجار في أمريكا وأوربا أنه قد أسلم على أيديهم المئات من الكفار.

ويا ليت المسلمين الذين يذهبون إلى تلك البلاد أن يكونوا خير دعاة إلى الله لأسلم كل من في تلك البلاد.

وقد حدثني رجل زار أمريكا، أنه التقى برجل عنده محل تحل تجاري، فأخبره أنه لا يتكلم مع من يشتري منه عن الإسلام بشيء، ولكن عنده ورقة صغيرة فيها تعريف بالإسلام، فيضع هذه الورقة مع المشتريات، فمن يرغب منهم في الإسلام يرجع إليه ويستفسر عن هذا الدين الذي لا يعرفه، فأخبره أنه قد أسلم على يديه: ألف وخمسمائة شخص.

٦. استغل الغلام حاجة الجليس ودعاه إلى الله، وفي هذا دليل أن الإنسان إذا كان محتاجا لشيء فإن استجابته تكون أسرع.

ولو نظرنا إلى مسلمي أفريقيا اليوم وقد تنصر منهم

الآلاف، وكيف استغل المبشرون حاجتهم للمال والطعام ، فاستغلوهم أبشع استغلال لاتباع باطلهم.

بينما لم يجدوا أحدا من أغنياء المسلمين ينفق عليهم ولو القليل.

٧. الداعية الناجح المؤثر سرعان ما يكون لكلامه الأثر البالغ، لأن الإيمان كامن في النفوس، وموافق للفطرة، ولكن يحتاج إلى من يحرك هذا الإيمان.

فجليس الملك بمجرد دعوته من الغلام أعلن إسلامه.

٨. لم يخبر الغلام جليس الملك أن لا يدل عليه، لأنه يريد من الدعوة أن تنتقل إلى المجال العلني، حتى يسمع الناس بها فيدخلوا في دين الله.

فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟

قَالَ: رَبِّى.

قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟

قَالَ: رَبِّى وَرَبُّكَ اللَّهُ.

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ.

١ . دخل الإيمان في قلب جليس الملك سريعا ، وتمكن منه ، وما أروع الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب .

٢ . لقد تحول الجليس من عدو لله إلى داعية إليه ، ومن عابد للملك إلى عابد لرب الملك ، وفيه ذكرى لنا أن لا ييأس المسلم من دعوة أحد ، فقد سجل الإسلام نماذج رائعة : خالد بن الوليد ، عكرمة بن أبي جهل وغيرهم الكثير ، في كل عصر ، وفي كل مصر .

٣ . لقد اختار الجليس أن يبدأ دعوته بأعتى رجل ، وهذا يدل على أن الإيمان بالله واليوم الآخر يولد عند المسلم شجاعة وحبا للآخرة .

٤ . رأى الملك في كلام الجليس بوادر تهدد ملكه وسلطانه ، لأنهم يعلمون أن دعوة الحق تحول بينهم وبين رغباتهم الباطلة وشهواتهم المنحرفة .

٥ . لقد ادعى الملك الربوبية : وهذا أعتى ما يصل إليه الظلمة والكفرة ، ورغم كل هذا فلا يزداد المؤمن إلا ثقة بالله ووعده ، كما حصل مع الجليس الذي لم يخف من تلك الكلمة .

٦ . يصيب الجليس ما يصيب كل داعية ، حيث عذبه الملك لأنه قال : لا إله إلا الله .

٧ . قد يضعف رجل العقيدة عن احتمال الأذى ، ويبوح بأسرار لا يجوز البوح بها ، ولكن : من شدة العذاب ، فالجليس دل على الغلام ، والغلام فيما بعد دل على الراهب ، والكل فيهم معذور ، وعلى الدعاة أن يعذر بعضهم بعضا ، إن حل بهم مثل ما حل بهؤلاء .

فجيء بالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ .
فَقَالَ : إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ .
فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ .

١ . يخاطب الملك الغلام بقوله : أي بني : والكلمة في ظاهرها حنان ، ولكنها تحمل في ثناياها مكر واستهزاء لأنه أعقبها باتهامه أنه ساحر .

٢ . ينجح الغلام في مخاطبة الملك بكل جرأة : إني لا أشفي أحدا ، إنما يشفي الله ، وما أعظم كلمة الحق عندما تقال لسلطان جائر .

٣ . يعذب الملك الغلام ، ويثبت على دينه ، ولكنه لا يثبت على سر معلمه : الراهب ، ويدل عليه ، ولا شك أن العذاب الذي

استخدمه الملك حتى دل الغلام المؤمن على الراهب قد أفقده وعيه حتى نطق بهذا السر العظيم.

٤. وفي هذا درس للدعاة أن لا يكثروا من الأسرار، لأنه في أي لحظة قد يقع في مصيدة الظلمة فيبوح بتلك الأسرار.

٥. على القيادة أن تعطي عذرا لأولئك المعذبين، لأنه ما باح بتلك الأسرار المؤلمة التي قد تؤدي إلى قتل مؤمنين إلا تحت العذاب الشديد.

فجيء بالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

ثُمَّ جيء بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

١. كان الملك حريصا على ارتداد هؤلاء عن دينهما حتى لا يفشو الأمر بين الناس، فيكون ما حدث سرا قد دفن، ولم يعلم به أحد.

٢. قتلهما بوساطة المنشار يدل على مدى الحقد الذي وصل إليه الملك على المؤمنين، لذلك قال الله عنهم: "وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" (البروج: ٨).

ولا شك أنه في كل عصر يبتكر الظلمة من وسائل التعذيب غير الإنسانية التي لا يتصورها العقل.

٣. وهذا في حد ذاته يدل على أن أهل الباطل لا يقبلون الحوار، لأن الحوار سيهزمهم لقلة حجتهم، فيواجهونه بالباطل.

٤. الموت في سبيل الله نصرة لأهل الحق، لأن الدنيا متاعها قليل، وسرعان ما يذهب المسلم المقتول ظلما إلى جنة عرضها السموات والأرض.

٥. وجوب الصبر على الأذى في الله، فقد صبر الجليس والراهب ما لا يصبره إلا القليل.

٦. لقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الألوان من العذاب الذي كان يعانيه القدامى المؤمنون من الجبابرة الطغاة، فقد جاء في الحديث:

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ.

قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟

قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ.

وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ".

رواه البخاري: ٣٣٤٣.

ثُمَّ جيء بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ(سفينة صغيرة) فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

١ . كان الملك يعتبر الغلام القائد الفعلي للدعوة، لأنه هو المعروف بين الناس، والمحبوب من قبلهم، فالتخلص منه تخلص من الدعوة وأهلها .

٢ . أراد الملك أن ينظر الغلام إلى مقتل الراهب والجليس ، لعله يرجع عن دينه، لأنه إن رجع فإن الشعب كله سيعلم أن الحق ما عليه الملك وحاشيته .

٣ . لعل في عدم قتل الغلام كما قتل الراهب والجليس فرصة للتفكير وحرص من الملك أن يرجع الغلام عن دينه .

٤ . الغلام متوكل على ربه مفوض أمره إليه، ويظهر هذا من خلال دعائه .

٥ . وفي الحديث فضل الدعاء، وأنه سلاح عظيم .

قال النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» .

رواه أبو داود: ١٢٦٤ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٣٤٠٧ .

فكيف إذا كان الداعي مظلوما ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» .

رواه البخاري: ١٤٩٦ ، ومسلم: ٢٧ .

٦ . يظهر الله سبحانه كرامة أخرى على يد الغلام، بأن انكفأت

السفينة ورجف الجبل، وهذا في حد ذاته يدل على صدق الغلام، ونصرة الله له.

٧. لم يكن الغلام حريصا على حياته البتة لأنه في كل مرة كان بإمكانه الهرب، ولكنه أراد أن يضحي بنفسه لأجل إسلام الناس.

٨. اعتبر الغلام أن اختفاءه هزيمة لدعوته، فأراد للدعوة الظهور مهما حدث.

٩. وهنا يظهر الفرق بين التهور والشجاعة، فالتهور: هو التضحية بلا ضرورة، وأما الشجاعة: فهي التضحية للضرورة.

١٠. في قول الملك للغلام: ما فعل أصحابك؟ حيث نسب الصحبة إليه، مع أنهم أصحاب الملك: فيبدو أن عودة الغلام بدونهم كانت كافية لاعتقاد الملك أن الجنود:

إما أسلموا مع الغلام، فصاروا صحبة له.

وإما أنه هزمهم فلا يريد أن ينسب الهزيمة لنفسه أمام الغلام، وهذا يدل على حكمة الملك الكافر وسرعة تذكره.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.
قَالَ: وَمَا هُوَ؟

١ . الموت والحياة بيد الله سبحانه، لقد أراد الملك قتل الغلام مرتين، ولكن ما جاء أجل الغلام الذي كتبه الله له، وفي هذا درس عظيم أن يطمئن المسلم على أجله لأنه مكتوب، فقد يعمل الإنسان العمل الخطير الذي يظن أن فيه الموت ولا يموت، وقد يعمل العمل البسيط الآمن فيكن فيه هلاكه.

٢ . أيقن الملك أنه عاجز عن قتل الغلام، فصار الغلام يصدر الأوامر والملك ينفذ، لأنه وصل إلى طريق مسدود يريد أن يتخلص من الغلام بأية وسيلة.

٣ . وفي هذا الموقف ذل من الله تعالى لهذا الملك الكافر: فقد كان بالأمس هو المتكبر الآمر الناهي، ويزعم أنه رب الناس، فصار يتلقى الأوامر من الغلام، فالغلام يقول: حتى تفعل ما آمرك به، والملك يقول: وما هو؟

قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي.

١ . الغلام يدل على قتله ويبذل نفسه لتحيا الدعوة، وهذا مثال

للتضحية في سبيل الله، وهذا ليس من باب الانتحار أبدا، فلم يكن الغلام غبيا يطلب الموت ، ولكنه كان يطلب إيمان الناس.

٢. في قول الغلام: (تجمع الناس في صعيد واحد) : حرص الغلام على حضور الجماهير لسماع كلمة الحق، فيؤمنوا بها.

٣. دل الغلام على طريقة قتله ليكتمل ضعف الغلام أمام الجماهير المحتشدة، فتثار العواطف للإيمان برب هذا الغلام، وفي هذا درس للدعاة أن يستثيروا عواطف الناس في توجيههم إلى الله تعالى واليوم الآخر، وقد خاطب الله في كتابه عواطف الإنسان للدلالة على أمور كثيرة ، منها: التوحيد ، والإيمان.

٤. توجيه الغلام لطريقة قتله، وأن يأخذ سهما من كنانته، فيه إهانة للملك وأنه عاجز أمام الناس، وأن الذي يملك الموت ليس الملك ، فليس عنده أدوات الموت، وأن الذي يملكها هو الله.

٥. أصر الغلام أن يقول الملك قبل قتله: بسم الله رب الغلام، حتى يقدم للناس العقيدة الصحيحة في الله، وأن الملك ليس ربا.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ(الصدغ: جانب الوجه بين العين والأذن) فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

١. لقد جعل الغلام عمره وقفا على دعوته، ولذلك بذله في سبيلها.

٢. لا شك أن الأحداث المؤلمة للدعاة تؤتي الأثر المطلوب في قلوب العباد، فكيف إذا كان الدعاة ممن يقدمون الخدمة للمجتمع مثل: الغلام، ولو علم الطغاة كم يترك تعذيب الدعاة من أثر في نفوس الناس، وكم يمتلئون عليهم حقدا، لتركوهم يدعون كما يشاؤون لأن تأثير الدعوة بدون هذا سيكون أقل تأثيرا.

٣. علم الناس أن الدعوة التي يقدم أصحابها أنفسهم لها، لا بد وأنها صحيحة.

٤. قيمة العلم عظيمة، فمتى علم الناس بالحق آمنوا به، وهتفوا: آمنا برب الغلام.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ .

فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا . أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ .

فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ : يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقّ» .

١ . يهيئ الله سبحانه بين الفينة والأخرى من يعلي منار الدين ، ومن يجدد الإسلام ، ويقوم عليه ، فقد آمن الناس على يد الغلام ، الذي لربما ظنه الكثيرون أنه بسيط لا يستطيع حمل أعباء الدعوة .

٢ . وقع ما كان يحذر الملك ، وهكذا كما قال سبحانه : "وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال : ٣٠) .

٣ . لم يجد الملك إلا الاضطهاد والتعذيب في مواجهة الحق : فأمر بإضرام النيران في الطرق ، فمن عاد عن دينه تركه ، ومن لم يعد ألقاه في النار .

٤ . وهكذا الباطل لا يستخدم أسلوب النقاش والحجة ، لأنه ليس عنده حجة يحتج بها ، ولا يملك منطقا ، فلا يجد مسلكا

لباطله أمام الناس إلا التنكيل والتعذيب.

٥. لم توقف الأخاديد زحف المؤمنين ولم تثنهم عن العقيدة الصافية، ولنتعلم درسا من إيمان هؤلاء الذي كان في لحظة واحدة ، واستعد الواحد منهم بالتضحية بأعز ما يملك لأجله، ولا يستعد الواحد منا أن يضحي بشيء يسير من وقته وماله، ونرى الناس يعيشون السنوات الطوال: السبعين والثمانين، ولا يتقدم الواحد منهم في الإسلام شبرا واحدا، حتى ترى منهم من يعادي الإسلام وهو يرى أنه ينتصر له، ومن يرتضي لنفسه من المناهج الأرضية التي تخالف زعمه الباهت أنه مؤمن برب البشرية.

حقيقة إنه الإيمان الصادق عندما يخالط القلب فليس هناك ما هو ألذ منه.

٦. كلما زاد ابتلاء العبد زادت حسناته عند الله، وزادت أسهمه عند الناس، وصار كلامه مسموعا، مع أن الابتلاء شديد على النفس، ولكن كما قال ربنا سبحانه: " وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» (البقرة: ٢١٦).

٧. واصلت الجماهير اندفاعها نحو الأخاديد، لأنها آثرت ما عند ربها، وفازوا بالشهادة، ولم يتأسفوا على هذه الدنيا التي يتقاتل الناس اليوم عليها من أجل دريهمات معدودة.

٨ . أخبر الله سبحانه أنه لعن أصحاب الأخدود : بمعنى طردهم من رحمته ، فالحياة قصيرة مهما تمتع بها الطغاة والجبارون .

٩ . ماذا يصبح الإنسان عندما يفقد الرحمة من قلبه ، كيف جلس هؤلاء يتلذذون بمنظر النار وهي تأكل الحياة؟

كيف يتلهون بمنظر الأجساد الكريمة من شيوخ كبار ، ونساء وأطفال ، وهي تتحول إلى وقود وتراب؟

كيف ترتفع النشوة الخسيسة في نفوس هؤلاء الطغاة وهم ينظرون إلى عذاب المؤمنين ، ولربما كان الكثير منهم لهم أقارب من هؤلاء ، لأن الظن أنهم من بلد واحد؟

وحتى الوحوش في الغابات تفترس لتأكل ، لا تفترس لتتلذذ على الافتراس ، فكان هؤلاء أخس من هذه الوحوش .

١٠ . الحسابات الأرضية حسابات مؤلمة ، والحسابات الحقيقية الأخروية مفرحة : فالبعض لأنه لم ير في القصة أن الله قد أخذ الفئة الباغية كما أخذ فرعون وجنوده ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، يظن وهو يقرأ القصة ويتصور : أن الفئة الباغية الآن تقر في ملكها فرحة بنصرها الوهمي ، ولكن أنى ذلك؟

لقد انتهى كل شيء فالقصة لها مئات وربما آلاف السنين ، والطغاة منذ نهاية حياتهم مشغولون في عذابهم ، ويوم

القيامة ادخلوا الطغاة أشد العذاب .

وأما أهل الإيمان فلم يجدوا من مس القتل إلا كما يجد أحدنا من مس القرصة ، وهم يتمتعون برضوان الله وجنته .

فالحياة الدنيا ليست هي الميزان ، إنما الميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة .

قال سبحانه : " وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه . . . »(آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة» .

رواه الترمذي : ١٦٦٨ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وصححه الألباني في السلسة الصحيحة : ٩٦٠ .

١١ . في هذه النهاية المأساوية للمؤمنين تنبيه للمؤمنين والدعاة أن أمر الدعوة والعقيدة يتولاه الله ، فلربما لا يشهد الدعاة النصر ، فأنت عليك أن تزرع ، والله عليه الثمر ، ويأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد ، ولم يؤمن به أحد ، وما قصر النبي في دعوته أبدا ، ولكنه قدر الله للدين والعقيدة وأهلها ، وقد سجل القرآن أن من الأنبياء من قتل في سبيل

دعوته وعقيدته، فلسنا بأفضل من الأنبياء.

١٢. على المؤمن أن لا يستهين بأحد وهو يدعو إلى الله، فهذا الغلام الذي في نظر الناس لا وزن له، ولا يلتفت إليه، قد أحيا الله به أمة كاملة، وهكذا يا أيها الدعاة، وهكذا يا أئمة المساجد، لا تستهينوا بأحد فقد يكون له شأن كبير.

١٣. وقد كان من آخر كرامات الله للغلام أن حفظ جسمه فلا يبلى، ولا تأكله الأرض، وقد كشفوا عنه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوجدوه كما هو، وأصبعه على صدغه كما وضعه، صدق الله فصدقه الله.

وفي نهاية حال المؤمنين في هذه القصة:
تحدث الكرامة:
طفل يتكلم في المهد

لقد أجرى الله الكرامة على يد طفل رضيع تحمله أمه، والنيران مشتعلة أمامها، فتخاف من الوقوع فيها، وصلابة دينها وقوة عقيدتها لا تسمح لها بالكفر.

إنها لا تخاف على نفسها من النار، ولكن حنان الأم الذي يجعل حياة الولد مقدمة على حياة الأم، إنه ثمرة الفؤاد.

ولكن ينادي الطفل وينطق بأمر الله، ويأمر أمه بالصبر لأنها على الحق، ولأن اجتماع الأهل والأحبة عند ملك الملوك خير

من اجتماعهم عند ملك عادل في الدنيا بما فيها من المنغصات والمصائب، فكيف إذا كان الاجتماع عند ملك ظالم لا يستطيع المسلم أن يفعل أدنى شعائره الدينية في مملكته.

إذن فالذهاب عند الله أفضل، فقد هان الموت على الطفل، ونطق بأمر الله، وربما رأى الكفار هذه الكرامة من الله ، ولكن أنى لقلوب مثل الحجارة أن تلين لذكر الله وآياته، فجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا.

وكم تكلم الناس على مر الأجيال عن قصة الغلام، وهذا الطفل الرضيع، وكم وقف العلماء أمام هذه القصة دراسة وتحليلا، كم استخلصوا منها العبر والمواعظ والدروس.

لقد خلد الله ذكراهم بكل خير وجعل من حياتهم عبرة يهتدي بها أهل الإسلام، ويقتبس منها الدعاة الدروس والعبر.

فماذا تركت لنفسك بعد موتك؟

هل سيذكرك الناس بالخير أم بالشر؟

هل سيبقى لك ذكر أم أن ذكرك سيموت بموتك؟

والله سبحانه يقول: " إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ» (يس: ١٢).

ولا شك أن الدعاة يعرفون بعد موتهم أكثر من حياتهم، فالذكر بعد الموت عمر ثان يعيشه المسلم كما قال بعض أهل العلم.

وانظر إلى من يتذكرهم الناس بكل خير وصلاح، وقد مضت على موتهم: القرون الطويلة.

فكم يقول الناس في اليوم: أبو هريرة رضي الله عنه، وكم يقولون: الشافعي رحمه الله، وغيرهم الكثير.

فاترك لنفسك ذكرا بعد موتك.

المبحث الرابع:

ابن ماشطة ابنة فرعون

تمهيد:

إن القارئ في سير الصالحين والعُبّاد والزهاد يجد العجب العجاب، من مواقف القوم في العبادة والخشية، والصبر على البلاء، والقوة في إظهار الحق، وإنكار المنكر، وبذل المال والوقت والجهد والنفس.

ولا عجب إذا ما عرفنا أن القوم قد خالط الإيمان قلوبهم، وسكنت الآخرة في قرارة نفوسهم، وانشغلت عقولهم بالتفكير في لقاء مولاهم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ومن كانت هذه حاله ، فلا غرابة أن تخرج الحكمة من أقواله وأفعاله، ويكون قدوة في الخير وهاديا ودليلا إليه.

هذه قصة بطولية سطرتها امرأة في بيت واحد من أكبر الظلمة على وجه الأرض: إنه فرعون.

فيلقي الله سبحانه الشجاعة في قلب من شاء من عباده، ويصدح ناس بالحق في زمن ومكان لم يكن أحد يتوقع منهم، أو من أمثالهم ذلك.

هذه حكاية امرأة سطر الله اسمها بحروف من ذهب على مدار التاريخ ، وذاع سيطها في الأرض والسماء ، وشم رسول الله صلى الله عليه وسلم رائحتها العطرة في رحلة الإسراء والمعراج .

إنها امرأة ضحت بكل أسرتها في سبيل الله، في سبيل إعلاء كلمة : لا إله إلا الله في بيت الطاغية : فرعون .

هذه المرأة وإن لم يكن لها ذلك المركز الكبير في القوم، إلا أن الله حفظ اسمها أكثر من أسماء : الملوك والزعماء والأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ ، الذين طحنهم الثرى، وطوتهم الأرض، إلا أن الذكرى الخالدة تكون لصاحب الحق الذي عرف الله حق المعرفة .

فليست الشهرة بالمناصب وكثرة الظهور وإنما بتقوى الله وذكره سبحانه .

ولنتعرف على قصة تلك المرأة كما جاءت في الحديث الصحيح :

نص الحديث :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
"لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ .
فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟
فَقَالَ : هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا .
قَالَ : قُلْتُ : وَمَا شَأْنُهَا؟
قَالَ : بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى مِنْ

يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ.

فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللَّهُ.

قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي.

قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. (وفي رواية ابن حبان: قَالَتْ رَبِّي وَرَبُّكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا.

قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً.

قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟

قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا.

قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ.

قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ.

قَالَ: يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ فَاقْتَحَمَتْ.

قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ : عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ» .

تخريج الحديث:

رواه أحمد : ٢٦٨٢ ، وابن حبان في صحيحه : ٢٩٠٤ .

ورواه الحاكم في المستدرك : ٣٨٣٥ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه .

وقال الذهبي قي التلخيص : صحيح

المستدرك على الصحيحين مع تعليقات الذهبي في التلخيص : ٢/ ٥٣٨ .

جاء في فتاوى موقع الإسلام سؤال وجواب :

وقال ابن كثير في " التفسير " (٣/ ١٥) : " إسناده لا بأس به " ، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٤/ ٢٩٥) .

وقال الأرنؤوط في تخريج المسند (٥/ ٣٠ - ٣١ رقم ٢٨٢١) : "إسناده حسن ، فقد سمع حماد بن سلمة من عطاء قبل الاختلاط عند جمع من الأئمة " . أ هـ

إذن : القصة صحيحة ثابتة .

غريب الحديث:

المدرى: حديدة يُسَرَّح بها الشعر.

الفائق في غريب الحديث والأثر: ١/ ٤٢١.

تحليل القصة وفوائدها [٤]:

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ءلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ.

فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟

فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا.

قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟

قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ.

فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي.

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللَّهُ.

---

٤ صحيح القصص النبوي: ص ٧٨٢.
بالإضافة إلى:
موقع المنبر: ptth//:www. rabnimla. ten/batuhkla/batuhk. aab. LRUaidem?psa=٦٥٧٨
وموقع مجلة الابتسامة: www.basmah.com

١ . رأى النبي صلى الله عليه وسلم من آيات الله الكبرى في رحلة الإسراء والمعراج، قال سبحانه: « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» (النجم: ١٨).

٢ . كان فرعون يتخذ لنفسه ولأولاده الخدم ، حتى كان لابنته امرأة خاصة تمشط لها شعرها.

٣ . الإيمان عندما يجد مسلكا في قلوب العباد، فإنهم يرتاحون له، فهذه الماشطة في قصر فرعون، كانت مؤمنة بالله تعالى، ومن قبلها من هو أعظم منها: امرأة فرعون، وقد يكون هناك ارتباط وتعاون على البر والتقوى بين هذه الماشطة وامرأة فرعون، وقد تكون واحدة منهما سببا في هداية الثانية.

٤ . يسخر الله من يهز عروش الظلمة بإيمانهم بالله من داخل بيوتهم، كامرأة فرعون ، وماشطة ابنته.

٥ . لا بد أحيانا من كتم الإيمان كما كتمته هذه المرأة، وكتمته من قبل زوجة فرعون ، ومؤمن آل فرعون الذي نصر الله

به نبيه موسى عليه الصلاة والسلام.

٦. مهما كتم الإنسان ما يجري في أعماق نفسه، فلا بد أن تدل عليه تصرفاته وحركاته وأقواله، فيغفل الإنسان عن نفسه، ويتصرف بما في داخله، فهذه المرأة قالت ما يقوله أي مسلم إذا سقط من يده شيء: بسم الله.

٧. وصل الكفر بفرعون أن ادعى الألوهية والربوبية، وحمل الناس على الإيمان به، ومن لم يفعل: يعذبه ويقتله.

٨. كانت ابنة فرعون مغرورة بأبيها متجاهلة لفطرتها التي فطرها الله عليها، مؤمنة بربوبية والدها الضال المجرم، ولا ندري هل كانت هذه البنت من امرأته المؤمنة، أم من امرأة أخرى.

٩. وكونها ربما من هذه الزوجة المؤمنة لا يضيرها، لأن الهداية بيد الله تعالى، وما استطاع نوح عليه الصلاة والسلام أن يجعل ابنه على طريقه ونهجه.

قال تعالى: «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (هود: ٤٢، ٤٣)

١٠. ظنت البنت أن المقصود بقول الماشطة: بسم الله، هو

والدها، فسألتها عن ذلك، أبي؟

١١ . عزمت الماشطة أن تقف الموقف الإيماني الذي يفرضه الإيمان رغم ما يترتب عليه من النتائج، التي ربما تقضي عليها وأسرتها، ولذلك كانت صريحة في الإجابة.

١٢ . فأخبرتها وبكل صراحة وجرأة أنها مؤمنة بالله تعالى ، وأن والدها عبد لله تعالى.

١٣ . في الحديث دليل على أن الأموات ينعمون ، أو يعذبون في حياة البرزخ، وتنعم أرواح المؤمنين بصعودها إلى العالم العلوي في السموات لتتمتع بنعم الله الخاصة بأهل الإيمان ، وقد شم النبي صلى الله عليه وسلم رائحة هذه المرأة الطيبة في رحلة الإسراء والمعراج.

وقد دل ظاهر القرآن الكريم وصريح السنة المطهرة على عذاب القبر.

فمن القرآن: قول الله تعالى عن آل فرعون: "وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ" (غافر: ٤٥، ٤٦).

فهذه الآيات تدل على أن آل فرعون يعرضون على النار في الصباح والمساء، كل ذلك قبل يوم القيامة، لأنه قال بعدها: " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ "

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

" إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ" .

رواه البخاري : ٣٠٠١، ومسلم : ٢٨٦٦ .

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : "أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ ، فَقَالَتْ لَهَا : أَعَاذَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ .

فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، فَقَالَ : نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ .

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" .

رواه البخاري : ١٢٨٣ ، ومسلم : ٩٠٣ .

قَالَتْ : أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟

قَالَتْ : نَعَمْ .

فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا ، فَقَالَ : يَا فُلَانَةُ وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي .

قَالَتْ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ . (وفي رواية ابن حبان : قَالَتْ رَبِّي وَرَبُّكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

١ . ظنت ابنة فرعون أن المرأة ستتوسل إليها أن لا تخبر والدها عما قالته .

٢ . أو : أنها ستتراجع عن مقالتها مقابل مصلحة ، أو مركز تعطيه ابنة فرعون لتلك الماشطة ، فعند هؤلاء الظلمة تتعدد المصالح والمنافع ، لأنهم يستولون على كل خيرات الرعية .

٣ . حسمت المرأة الصالحة الأمر فلم تتوسل لها واستعلت بإيمانها .

٤ . قد يفرح بعض من يكتمون إيمانهم إذا اكتشف أمرهم رغم النتائج الأليمة التي تعقب ذلك ، وذلك لأن الشوق لما عند الله يجعل المسلم يزهد في هذه الدنيا ، ويطلب حياة كريمة عند ربه يوم يلقاه .

٥ . أخبرت الفتاة المغرورة والدها المجرم الطاغية ، لأنها خشيت أن يذاع أمر هذه المرأة ويهتز سلطان والدها ، فأولاد الملوك ينتظرون ميراث والدهم ، فلا بد من المحافظة على سلطانه ، حتى يكون الميراث قيما .

٦ . لم تهب الماشطة من ذلك الجبار واستعلت أمام الطاغية بإيمانها ، وتحدثت بكل جرأة أنها مؤمنة بالله ، وأن الله ربها ورب فرعون .

٧. وقع في رواية ابن حبان: "ربي وربك من في السماء"، وفيه أن المرأة أثبتت صفة العلو لله تعالى، وهذا ما قرره قرآننا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وفيه جواب لمن سأل: أين الله؟ فالجواب: في السماء.

فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: "... كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا.

وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟

قَالَ: ائْتِنِي بِهَا، فَأَتَيْتُهُ بِهَا.

فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللَّهُ؟

قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ.

قَالَ: مَنْ أَنَا؟

قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ.

قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ.

رواه مسلم: ٨٣٦.

فاستدل النبي صلى الله عليه وسلم على إيمانها بمعرفتها أين الله.

وسبحان الله هذا أمر فطري في النفس البشرية، فلو سألت

طفلا صغيرا ، أين الله؟

لرفع بصره على السماء .

فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا .

قَالَتْ لَهُ : إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً .

قَالَ : وَمَا حَاجَتُكِ؟

قَالَتْ : أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا .

قَالَ : ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنْ الْحَقِّ .

١ . استعمل الطاغية وسيلة قبيحة مؤلمة في تعذيب المرأة المؤمنة ، فجاء بأداة مصنوعة على شكل بقرة ، فأشعلت تحتها النار حتى حميت ليلقي بها وأولادها فيها .

٢ . ولكن الإيمان يصنع بالنفوس ما لا يتصوره الطغاة ، إنهم يستروحون العذاب في سبيل الله .

٣ . طلبت منه طلبا : ظن الطاغية أنها ستتراجع عن موقفها ، أو أنها تتوسل إليه .

٤ . طلبت منه أن يجمع بين عظامها وعظام أولادها في قبر

واحد، وهذا يدل على حرص المسلم على رفاته بعد موته، والظاهر أن شدة حبها لأولادها أرادات أن يكونوا معها في قبر واحد.

٥. وفي الحديث جواز أن يطلب المسلم من الطغاة أمرا له فيه صلاح، كما طلبت منه هذه المرأة.

قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ.

قَالَ: يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ فَاقْتَحَمَتْ.

قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَشَاهِدُ يُوسُفَ وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ».

١. قد يظن البعض أن هذه المرأة قد أساءت إلى أولادها حينما أوقعت فيهم هذا العذاب، ولكن أهل الإيمان ينظرون إلى مثل هذه الأمور من منطق آخر، فهي تعتقد أن ما فعلته خير عظيم يعمها وأولادها عند الله.

٢. صار المجرم يلقي أولادها أمامها في النار، وفي ذلك من العذاب النفسي ما تتفطر له القلوب.

ولك أن تتصور هذا المنظر الأليم، الأولاد فلذة الأكباد الذين لطالما ركضوا إليها، وارتموا بين يديها، طالما ضمتهم إلى صدرها، وألبستهم ثيابهم بيدها، ومسحت دموعهم بأصابعها.

ثم ها هم اليوم ينتزعون من بين يديها ويقتلون أمام ناظريها، كانت تستطيع أن تحول بينهم وبين العذاب بكلمة كفر تسمعها فرعون، لكنها علمت أن ما عند الله خير وأبقى، **فلله درها ما أعظم ثباتها وأكثر ثوابها**.

هذا الموقف يطرح تساؤلا يثير في النفس كوامن الحسرة والحرقة، ويحرك فيها عوامل المنافسة والمسابقة، تساؤلا يقول: أين نحن من هؤلاء؟!

هذه همة امرأة في سبيل الله، وكم من رجل اليوم يُطلبُ منه ترك محرم من المحرمات، يطلب منه ترك المسلسلات الهابطة، والأفلام الفاجرة فيقول: لا أستطيع.

والآخر يقال له: اترك الغناء المحرم، فيقول: لا أستطيع، حاولت ولم أفلح.

وثالث يقال له: اترك التدخين فيقول أيضا: لا أستطيع حاولت مرارا وفشلت.

لا تستطيعون! لا ضير ولا بأس، فالله عز وجل ليس بحاجة

لترككم لهذه المحرمات ، ومُلْكُ الله لن يزيد بطاعة المطيع ، ولن ينقص بمعصية العاصي .

يقول سبحانه : "وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ" (إبراهيم : ٨) .

فلو كن النساء كمن ذُكِرْنَ لفضِّلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

٣ . يدل هذا اللون من العذاب الذي استعمله فرعون على خلو قلوب المجرمين من الرحمة والشفقة .

عندما نسمع عن ألوان العذاب الذي يستعمله الجبارون في هذا الزمان ، من الحكام وأعوانهم ، يستغرب الواحد منا ، ولكن هذه الأساليب قديمة استعملها فرعون وغيره من قبل .

٤ . لقد جعل الله لها في السموات رائحة عطر طيبة تشم إلى يوم القيامة ، وقد فاحت منهم رائحة النار وهي تحرق أجسادهم ، وهذا من إكرام الله لأوليائه الذين يبذلون نفوسهم رخيصة في سبيله .

قال تعالى : "وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ" (غافر : ٤٥ ، ٤٦) .

فبمقدار هوانها على فرعون ، جعل الله لها ولأولادها جزاء

عظيما يتحدث عن ذكراهم الخلق إلى يوم يلقونه .

٥ . لقد أشفقت المرأة على طفل بين يديها رضيع ، وكأنها أرادت أن ترجع لأجله لا لأجلها ، لأنها رأت أولادها كلهم يلقون أمامها .

وهنا تحدث الكرامة الربانية العظيمة لهذه المرأة: طفلها الرضيع يتكلم في المهد

يتحدث الطفل لأمه أن لا تقلق لأجله ، وأنطقه الله لها ليكون دليلا على صدق إيمانها ، وموقفها ، فقال لها : يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ .

ولما سمعت المرأة هذه الآية الربانية التي أيدها الله بها ، زادت من يقينها وإيمانها بالله تعالى ، فما كان منها إلا أن اقتحمت في النار .

ماتت المرأة وبقيت ذكراها ، ولعل الميت يبكي عليه أعز الناس إليه ، بضع أيام ، ولعل هذه المرأة بكى عليها الصالحون بعد مئات وآلاف السنين شفقة عليها وعلى أطفالها .

لعل الواحد منا يجد بعض الناس يدعون له بعد موته أياما ، وهذه المرأة يدعو الناس لها آلاف السنين ، أن يتغمدها الله بواسع رحمته ، ويسكنها فسيح جناته .

فهلا تركت لنفسك ذكرى طيبة يتذكرك الناس بها، فيدعون الله لك ، فينفعك الله بهذا الدعاء.

لقد ماتت المرأة ومات فرعون، ولكن شتان بين مؤمن وكافر، شتان بين مصيرها ومصير فرعون.

شتان بين من تفوح منه رائحة المسك، وبين من يعرض على النار غدوة وعشية، شتان بين من يتحدث عنه الناس بالخير، وبين من تلعنه الخلائق.

ومن دخل الجنة نسي ما أصابه في الدنيا ، فمن هم سكان الجنة؟ هل هم أهل شهوات ومعاص ؟

كلا و الله ، إنهم أهل الصيام مع القيام، وطيب الكلمات والإحسان.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟

فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟

فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»

رواه مسلم: ٥٠٢١.

المبحث الخامس:

الطفل الذي تكلم للعابد جريج

تمهيد:

قصة جريج: قصة رجل عابد زاهد في هذه الحياة، وصل به الأمر في حبه لعبادته، وخشوعه في صلاته ، أنه سمع نداء أمه ثلاث مرات ولم يرد عليها .

فما كان من أمه إلا أن دعت عليه، ودعوتها غريبة لا تعتاد النساء أن تدعو بمثلها على أولادها، دعت أن لا يموت حتى يرى وجوه المومسات .

فاستجاب الله دعاءها فاتهمته امرأة زانية من بني إسرائيل، وادعت أنه والد طفل هي ولدته .

ولكن الله نجا جريجا بصلاته وصلاحه من شر هذه الزانية، وما اتهمته به، فأنطق الله له طفلها الرضيع ليتكلم بالحقيقة .

وبذلك استجاب الله دعاء أمه عليه، ونجاه بصلاحه وتقواه من تلك الفاجرة .

نص الحديث:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ: « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِى الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ .

وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّى .

فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ .

فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي . فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَانْصَرَفَتْ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ .

فَقَالَ: يَا رَبِّ أمي وصلاتي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَانْصَرَفَتْ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ .

فَقَالَ: أَي رَبِّ أُمِّي وصلاتي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ .

فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ .

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ .

قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا .

فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ .

فَلَمَّا وَلَدَتْ ، قَالَتْ : هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ .

فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ؟

قَالُوا : زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِي فَوَلَدَتْ مِنْكَ .

فَقَالَ : أَيْنَ الصبي؟

فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ : دعوني حَتَّى أُصَلِّيَ ، فَصَلَّى .

فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ : يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟

قَالَ : فُلَانٌ الراعي .

قَالَ : فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا : نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ .

قَالَ : لاَ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا»

وفي رواية أخرى :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، يُقَالُ لَهُ : جُرَيْجٌ ، يُصَلِّي .

فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ ، فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهَا ، فَقَالَ : أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي ، ثُمَّ أَتَتْهُ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ .

وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ : لَأَفْتِنَنَّ جُرَيْجًا ،

فَتَعَرَّضَتْ لَهُ ، فَكَلَّمَتْهُ ، فَأَبَى .

فَأَتَتْ رَاعِيًا ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا ، فَقَالَتْ : هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ .

فَأَتَوْهُ ، وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ ، فَأَنْزَلُوهُ ، وَسَبُّوهُ ، فَتَوَضَّأَ ، وَصَلَّى ، ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ ، فَقَالَ : مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟

قَالَ : الرَّاعِي .

قَالُوا : نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ .

قَالَ : لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ»

تخريج الحديث:

رواه البخاري : ٣٤٣٦ ، ومسلم : ٦٦٧٣ .

ورواه أحمد : ٧٧٢٦ ، وابن حبان في صحيحه : ٦٤٨٩ .

غريب الحديث:

الصومعة : بناء مرتفع يتخذ للعبادة .

المومسات : الزواني البغايا .

تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي : ١/ ١٥٧ .

تحليل القصة وفوائدها [٥]:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ: ء لَمْ يَتَكَلَّمْ فِى الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ.

وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّى.

فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ.

فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِه، فَانْصَرَفَتْ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ.

فَقَالَ: يَا رَبِّ أمي وصلاتي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِه، فَانْصَرَفَتْ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ.

فَقَالَ: أَي رَبِّ أُمِّي وصلاتي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِه.

فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ.

١. هذا الحديث ليس للحصر، وقد ورد كما أسلفنا حديث الطفل في قصة ماشطة ابنة فرعون، والمتكلم في قصة أصحاب الأخدود، وشاهد يوسف، ويكون قد ثبت الكلام

٥ شرح النووي على مسلم: ٦١/ ٧٠١، صحيح القصص النبوي: ص ١٧٢.
بالإضافة إلى الموقعين الآتيين:
http://audio.islamweb.net/
/moc.hkiahslahelas://ptth

في المهد لستة أشخاص، هؤلاء خمسة، والسادس يأتي في المبحث الذي بعد هذا إن شاء الله ، الطفل الذي دعا الله أن لا يجعله كالجبار.

٢. وفي الحديث عظيم قدرة الله في إحداث الأشياء الخارقة للعادة، تأييدا لعباده الصالحين.

٣. رغم سوء بني إسرائيل إلا أنه كان فيهم مجموعة من العباد والزهاد الذين يعرفون الله حق المعرفة، منهم: جريج.

٤. كان العباد والرهبان يتخذون لأنفسهم صومعات وهي عبارة عن: مكان مرتفع يتخذ للعبادة ، وينقطع فيه الإنسان غالبا عن أعين الناس.

٥. الظاهر أن جريج كان من اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، لأنهم هم الذين اتخذوا الرهبنة ، والانقطاع للعبادة.

٦. كانت له أم تحب زيارته ومحادثته، ولكنه كان يفضل دائما الانشغال بالصلاة، فكان يتلذذ فيها ويجد فيها راحته.

٧. جاءت إليه أمه لتكلمه مرارا، ولكن جريج منشغل بصلاته لا يريد أن يقطعها، وقد صورت بعض روايات الحديث أن أمه كانت تضع كفها على حاجبها، والظاهر أن ذلك كان من أشعة الشمس، وهو بحد ذاته يدل على شدة معاناتها وهي تريد لقاءه والجلوس معه.

٨ . وفي الحديث جواز التفكير في الصلاة في أمر مشروع ، لأن جريج فكر أن يرد على أمه في الصلاة ، ولكنه آثر البقاء فيها .

٩ . لقد كان الواجب على جريج أن ينصرف من صلاته ويجيب أمه ، فإجابة الأم أولى من صلاة النافلة ، وهذا الحديث يستدل به العلماء على جواز قطع صلاة النافلة لنداء الأم ، ومعلوم في ديننا أنه إذا تعارض أمران بدئ بأهمهما .

١٠ . الظاهر أن المتعة التي كان يجدها جريج في صلاته لا تتصور ، وإلا فإنه كان قادرا على أن يخفف في صلاته ويجيبها ، وصدق ربنا إذ يقول : "وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ" (البقرة : ٤٥) ، فالخشوع في الصلاة لا يتصوره إلا من عرفه ، كأمثال : جريج رضي الله عنه .

١١ . غضبت الأم على ابنها فدعت عليه دعوة غريبة : دعوة فتنة في دينه بأن لا يموت حتى يرى وجوه البغايا ، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنها لو دعت عليه بالفتنة لفتن كما جاء في رواية أخرى للحديث عند مسلم .

ومعروف أن دعاء الوالدين لأولادهم أو عليهم مستجاب ، فاحرص على أن يدعوا لك بالخير ، واحذر دعاءهما عليك بالشر .

وفي هذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم".

رواه أبو داود: ١٥٣٦، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة: ٥٩٦ .

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم الناس عموما والوالدين أن يدعوا على أولادهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

" لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ".

رواه مسلم: ٥٣٢٨ .

١٢ . وفي الحديث أيضا دليل على أن الشفقة التي أودعها الله في الوالدين قد يوجد ما يرفع هذه الشفقة، لأن هذه الدعوة من هذه المرأة عظيمة أن تدعو على ولدها أن لا يموت حتى ينظر في وجوه المومسات .

١٣ . يبدو أن جريجا كان معروفا بعفته، وعدم التفاته للنساء، حتى اختارت الأم هذه الدعوة .

١٤ . ينبغي على المسلم أن يوازن في أوقاته ، فساعة للعبادة ، وساعة للوالدين ، وأخرى للزوجة والأولاد ، وساعة

للعلم، وهكذا.

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ. قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا.

١. أوجد الله في هذه الحياة أسباب الهداية، وأسباب الضلال، والله سبحانه لا يمنع من حصول النتائج إذا وقعت أسبابها، لأنه أوجد كل هذا فتنة للبعاد، فالسارق يسرق بقدر الله، وكذا الزاني، ولكن لا يعني أن الله يرضى عن هذه الأفعال، فهذا هو القدر الكوني الذي قدره الله في هذه الدنيا بخلاف القدر الشرعي.

٢. قد يكون الحسد في كل شيء حتى في العبادة، فصاحب العبادة يحسده البعض على حسن خلقه، وعظيم تقواه، وكثير مدح الناس له، فيحب الحساد أن يشوهوا سمعته، كما حصل مع العابد جريج.

٣. ليس كل الحسن خير، فالحسن فتنة، على صاحبه أن يصونها، خصوصا إذا كان صاحب الحسن امرأة.

يقول صلى الله عليه وسلم: « مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى

الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»

رواه البخاري: ٥٠٩٦، ومسلم: ٤٩٢٣.

فهذه المرأة استعملت حسنها في الشر والحرام، وهي أيضا مغرورة متكبرة بجمالها حتى تباهت به للفتنة أمام القوم، بدل أن تشكر الله على هذه النعمة، وتمتع بها زوجها، راحت تبحث عن الحرام بأبشع صوره.

٤. الساقطون في وحل الرذيلة يظنون أن الناس مثلهم يتساقطون في الشهوات، ولا يعرفون أن من عباد الله من يستعلي لوجه الله على كل المتع الدنيوية.

٥. يحاول أهل الرذيلة تشويه صفحة الصالحين، كما حصل مع قوم جريج لأنه وقع في رواية أخرى أنها قالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قالوا: قد شئنا.

٦. التقوى تعصم صاحبها من الوقوع في الرذيلة، كما حصل مع جريج، وكما مر معنا في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام.

٧. كان إعراض جريج عن هذه البغي قد ترك في قلبها حقدا، وأصرت على إغوائه، فمكرت له مكرا عظيما.

٨. استجاب الله دعاء الأم، وفي هذا بيان لأثر عقوق الوالدين وترك برهما.

فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ.

فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ.

فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟

قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِي فَوَلَدَتْ مِنْكَ.

فَقَالَ: أَيْنَ الصبي؟

فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دعوني حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى.

فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟

قَالَ: فُلَانٌ الراعي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ.

قَالَ: لاَ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا.

١. استعملت المرأة حيلة خبيثة، حيث مكنت الراعي من نفسها فحملت، ولما ولدت ادعت أنه من جريج.

٢. وكم تقدر النساء على الإغواء لأن كيدهن عظيم، فهن يصرعن ذا اللب الحكيم.

٣. وقد كان الزنا وانتشار البغايا معروفا في بني إسرائيل، فأول ما فتنوا به النساء كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».

رواه مسلم: ٤٩٢٥.

٤. الزنا من الكبائر العظيمة التي يغار الله لها كثيرا ويجزي فاعلها جهنم، وقد سماها الحق سبحانه في كتابه فاحشة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

رواه البخاري: ١٠٤٤.

ولا شك أن الزنا يطفئ نور الإيمان في قلب صاحبه.

٥. كم يتأسف الناس عندما يرون صاحب التقوى والصلاح وهم يثقون به، ثم يكتشفون أنه فاجر.

لذلك ذهب الناس إلى جريج لما أذاعت البغي أمره، وهدموا صومعته وضربوه، لأنه في نظرهم يدعي العبادة، ولكنه يرتكب

الفاحشة، ومرتكب الفاحشة لا حرمة له.

٦. طلب جريج من هذه الجموع الثائرة أن يعطوه فرصة حتى يتوضأ ويصلي.

وهذا هو شأن الصالحين أن يفزعوا للصلاة عند نزول البلاء.

٧. وفيه دليل أن الوضوء كان موجودا في الديانات السماوية السابقة، ولكن لا نعرف هل كوضوئنا أم لا؟

٨. صلى جريج صلاة الخاشع لربه، الواثق بدعائه، فلما فرغ طعن في بطن الطفل طعنة خفيفة، ولك أن تتخيل منظر الناس ينظرون إليه صامتين، وربما بعضهم يستهزئ بفعله كما قالوا لمريم: كيف نكلم من كان في المهد صبيا؟

وسأله جريج بكل ثقة: من أبوك؟

وبعد الصلاة حدثت الكرامة الإلهية: الطفل يتكلم في المهد ليعلن براءة جريج

فجريج رجا أن ينقذه ربه من ذلك الاتهام، وليس أمامه إلا مثل هذه الوسيلة، ولكن لا ندري كيف ألهمه الله إلى مثل هذه الوسيلة التي لا يتفطن لمثلها أبدا.

فنطق الغلام.

أنطقه له الله جل وعلا، نطق الغلام بإنطاق الكريم الذي يتولى الصالحين.

لقد قال على مسمع الناس جميعا: أبي الراعي فلان وسماه باسمه.

فأدرك الناس عظم الجريمة التي ارتكبوها في حق العبد الصالح جريج، وعلموا أن جريجا لم يكن من الصنف الذي ظنوه.

ما كان جريج مرائيا ولا مخادعا.

فأقبلَ بنو إسرائيلَ على جُرَيْج يُقَبِّلُونه ويعتذرون إليه، ويَتَمَسَّحُونَ به، وطلبوا منه أن يبنوا صومعته من ذهب فرفض.

وذلك يدل على شدة ورعه وتقواه وزهده في الحياة، أو: لأن بناء أماكن العبادة والدور من ذهب منكر لا يجوز فعله.

وهل الدنيا تساوي شيئًا في قلب المستأنِس بالله؟

وفي نهاية القصة من الفوائد:

١. التسرع في الاتهام يورث الإنسان المتهم(بكسر الهاء) ندما كبيرا، فيسبب له الاعتذار أمام الناس عما بدر منه.

ورسولنا صلى الله عليه وسلم يحذرنا من ذلك فيقول: "

إياك و كل ما يعتذر منه " .

قال الألباني في "السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ٣٥٤.

رواه الضياء في " المختارة " (١٣١ / ١) عن عمرو بن الضحاك حدثنا أبو الضحاك

ابن مخلد أنبأ شبيب بن بشر عن أنس بن مالك مرفوعا .

قلت : وهذا سند حسن . أ هـ.

٢ . مهما تستر أهل الباطل على باطلهم فلا بد من يوم يكشف فيه زيفهم، كما حدث مع هذه الزانية، وينبغي على المؤمن أن يكون كيسا فطنا ، فيعرف أهل الباطل من خلال كلامهم ، وحركاتهم ، كما قال سبحانه: "وَلَوْ نَشَاء لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ" (محمد: ٣٠).

٣ . الإنسان الصالح ينفعه صلاحه وقت الحاجة، وفي أدق الظروف تظهر التقوى لتكون البرهان الساطع على صدق المسلم وصلاحه، وإن شئت فاقرأ قول الله تعالى: " وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (الطلاق: ٣، ٢).

٤ . الإنسان الصالح المتهم الذي تظهر براءته يزيد رصيده بين

الناس حبا ومدحا وثناء.

٥. يمكن أن يصحح الخطأ، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، فقد رجعوا يعتذرون لجريج، وأرادوا أن يبنوا صومعته من ذهب، ولكنه رفض إلا أن تعاد من الطين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تواضعه.

٦. وفي الحديث إثبات كرامات الأولياء.

٧. وفيه أن كرامات الأولياء قد تقع باختيارهم وطلبهم.

٨. حرمة بناء المساجد من ذهب أو فضة.

٩. جواز الأخذ بالأشد في العبادة لمن علم من نفسه القدرة على ذلك، كما فعل جريج فإنه كان دائم الصلاة.

١٠. قوة اليقين والرجاء بالله، فما الذي جعله يسأل الصبي إلا قوة يقينه بالله، وحسن توكله عليه.

١١. الله سبحانه يلهم أهل الإيمان بأشياء قد لا تخطر على بال أحد، كما ألهم جريج أن يكلم الغلام الرضيع، وقد يكون هذا من الوحي بالإلهام، كما أوحى الله إلى أم موسى أن تلقي ابنها في البحر.

١٢. قد يكون من الجائز عندهم التَّمَسُّح بالصالحين بِخِلافِ ما جاء في شريعةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فإنه لا يجوز التمسح بالصحابة ولا بالصالحين ولا بالأولياء، وإنما ذلك

للمصطفى عليه الصلاة والسلام حَيًّا .

ولماذا قد يكون من الجائز عندهم ذلك؟

لأنه لم يرد في القصة أن جريجا أنكر عليهم، ويصعب على رجل صالح مثل جريج أن يرى المنكر ولا ينكره .

وقد يكون ذلك جهلا منهم، ولهول ما رأى جريج نسي أن يخبرهم بحرمة ذلك .

١٣ . قوله : "يا غلام، من أبوك؟ قال : فلان الراعي" : ومعلوم أن الزاني لا يلحقه الولد، فكيف الإجابة عن ذلك؟

من وجهين :

١ . لعله كان في شرعهم يلحقه .

٢ . وقد يكون المراد : من ماء من أنت؟ وسماه أبا مجازا .

فالله أعلم

المبحث السادس:

الرضيع الذي دعا الله أن لا يجعله كالجبار

تمهيد:

هذا هو الطفل السادس الذي تكلم في المهد ، والذي نسرد قصته في هذا الكتاب .

وقد تدخل هذا الطفل منزعجا من دعاء أمه له، واهتمامها بالمظاهر دون حقائق الأمور الخفية المهمة .

فقد رأت فارسا فدعت لابنها أن يكون مثله ، دون أن تنظر في حال هذا الرجل : أعلى صلاح ، أم على فجور .

فاحتج الولد على دعاء أمه ورفضه .

ورأت امرأة مسكينة تعذب فدعت أن لا يكون ابنها مثلها، دون أن تنظر في حالها : لعلها أن تكون مظلومة .

فاحتج الغلام مرة أخرى ورفض الدعاء، ودعا الله أن يجعله مثلها .

وهكذا حال الكثير من الوالدين الذين ينظرون إلى مظاهر الدنيا وزينتها ، فيحب الواحد منهم أن يكون لابنه منها أوفر الحظ والنصيب، وما يعلم هؤلاء أن خير الزاد التقوى، وخير ما يترك الإنسان بعد موته ولدا صالحا يدعو له .

فالتقوى التي يتركها الوالدان لأولادهم ويربونهم عليها خير من حطام هذه الدنيا الفانية ، كما يكرم الله الأولاد بصلاح والديهم ، كما قال سبحانه : " وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ" (الكهف : ٨٢) .

وكذلك التقوى التي يربي عليها الآباء أبناءهم في الدنيا ، تكون ذخرا ورفعة لوالديهم في الجنة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ يَا رَبِّ : أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ : بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ" .

رواه أحمد : ١٠٢٠٢ ، وحسنه الشيخ مصطفى العدوي في صحيح الأحاديث القدسية : ١/ ٦٥ .

نص الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : » . . . . . وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ(في رواية أحمد : متكبر) عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا .

فَتَرَكَ الثَّدْيَ ، وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ ، قَالَ : فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا.

قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ(في رواية أحمد: بجيفة حبشية)، وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا.

فَتَرَكَ الرَّضَاعَ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَي، مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ.

وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ(في رواية أحمد: إِنَّكَ دَعَوْتَ رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِثْلَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ).

وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا".

تخريج الحديث:

رواه البخاري: ٣٤٣٦، ومسلم واللفظ له: ٦٦٢٦، وأحمد: ٩٣٧٣.

غريب الحديث:

دابة فارهة: النشيطة الحادة.

شارة حسنة: تعني الهيئة واللباس، أي أن لباسه ومنظره جميل.

حلقي: بالألف أو بالياء وكلاهما صحيح، وتعني: أصابها بوجع في حلقها، قال أبو عبيد: هذا على مذهب العرب في الدعاء على الشيء من غير إرادة وقوعه.

شرح النووي على مسلم: ٨/ ١٥٤.

تحليل القصة وفوائدها[٦]:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: » . . . . . وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ(في رواية أحمد: متكبر) عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا.

فَتَرَكَ الثَّدْيَ، وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ، قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

٦ شرح صحيح البخاري للحويني: ٦/ ١١، شرح النووي على مسلم: ٦١/ ٧٠١، صحيح القصص النبوي: ص ٧٩١، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين: ٢/ ١٥٣.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا.

قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ(في رواية أحمد: بجيفة حبشية)، وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا.

فَتَرَكَ الرَّضَاعَ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

١. الكبر من الصفات الذميمة التي يوجد من يتصف بها في كل زمان ومكان.

٢. الاهتمام بالمنظر يغري ضعاف الإيمان بالدنيا، كما اغتر أهل الدنيا بقارون عندما خرج عليهم في زينته، فقالوا دون النظر إلى حاله وكفره: " يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (القصص: ٧٩).

٣. اهتمام الناس بالخيول وتزيينها موجود من قديم الزمان، وإلى يومنا يتخذها الأغنياء للفخر والمباهاة.

٤. يستعمل الرسول للصحابة الإشارة المفهمة للدلالة على الشيء، لذلك مثل النبي صلى الله عليه وسلم ارتضاع الطفل ليدل على أنه يرضع رضاعة حقيقية وليست مجازية.

٥ . وهكذا ينبغي على الدعاة أن يستعملوا الوسائل الإيضاحية في بيان الأشياء للناس ، وهي كثيرة اليوم بفضل الله تعالى ، ويمكن الاستفادة البالغة من التطور التكنولوجي العجيب في زماننا في الدعوة إلى الله تعالى وخصوصا الانترنت .

٦ . يحب الناس المال والخيل ، ويتمنون ذلك لأقرب الناس إليهم كالأولاد ، ويدعون الله أن يعطيهم ذلك .

٧ . وفي الحديث : أن نفوس أهل الدنيا تقف عند الخيال الظاهر ، فيتخيل الواحد منهم شيئا من حطام الدنيا أنه له ، فيدعو به لنفسه ، كما هو حال المغترين بهذه الدنيا عندما يقف أمام قصر كبير فيتعلق به ، فيدعو لنفسه بذلك .

٨ . عادة أكثر الناس النظر إلى المظاهر ، ولا يدري الواحد منهم أين يكون له الخير ، فيطلب من الله ما فيه مضرته وهو لا يعلم ، كما قال سبحانه : " وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً» (الإسراء : ١١) .

لذلك طلبت المرأة من ربها أن يجعل ابنها كالجبار دون النظر إلى حاله : هل هو من الصالحين أم من الظالمين .

٩ . قد يكون الوالدان عقبة في طريق التزام أبنائهم ، فالأبوان يحبان الابن أكثر من محبتهما لنفسيهما ، فهل من تمام هذه المحبة أن يدخله النار؟ أو أن يعرضه لسخط الله عز وجل؟

فلا بد أن يعي الوالد ذلك.

١٠. وقع في رواية أحمد: بجيفة حبشية، فهي من الحبشة، والظاهر أنها ماتت من التعذيب، وصوروها بالجيفة لحقارتها وهوانها على الناس.

فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَي، مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ.

وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ(في رواية أحمد: إِنَّكِ دَعَوْتِ رَبَّكِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِثْلَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ).

وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا».

١. يوجد الله في كل عصر ما يدل على عجائب آياته التي تدل على كمال قدرته، ومن ذلك: أنه أنطق الطفل في المهد، فصحح المسار لأمه في الدعاء، وقد تعجبت أمه من كلامه، لذلك قالت: حلقي، وهي الكلمة التي تدل على التعجب

ولا يقصد منها الإضرار بالمدعو عليه.

٢. قوله: هناك تراجعا الحديث، معناه: أقبلت على الرضيع تكلمه عن سبب خلافه لها في رد الدعاء.

٣. قوله: "اللهم اجعلني مثلها" أي: اللهم اجعلني سالما من المعاصي كما هي سالمة، وليس المراد مثلها في النسبة إلى باطل.

ولا بد أيضا أنه لم يرد أن يكون مثلها في العذاب، لأن المؤمن لا يطلب الابتلاء، وإن وقع به صبر.

٤. لا ندري هل كان هذا الطفل فيما بعد نبيا أم لا؟ لأنه شهد أن الرجل من أهل النار كما وقع في رواية أحمد، وهذا لا يعلمه إلا نبي يوحى إليه من عند الله تعالى، فيبدو: أن الطفل كان بعدها نبيا.

أو: قد يكون من باب الوحي بالإلهام الذي يوحيه الله لمن شاء من عباده، كما أوحى الله إلى أم موسى، وأوحى إلى النحل.

وأرى أن الأول أرجح، والله أعلم.

المبحث السابع:

مبارك اليمامة

تمهيد:

هذا هو الطفل السابع من الأطفال الذين تكلموا في المهد، وقد أعرضت عن شرح قصته وتحليلها ، لأن العلماء تكلموا في حديثها كثيرا .

فبعضهم قال : إن الحديث مكذوب، وبعضهم ضعفه .

ولا أعلم أحدا من أهل العلم الثقات قد صحح هذا الحديث فيما أعلم .

لذا فإني سأذكر هذا الحديث وأكتفي بتخريجه، دون الخوض في شرحه، أو الاستفادة من فوائده، فالحديث ليس مما يرده العقل، لأن قدرة الله على إنطاق الطفل في المهد واضحة جلية من خلال ما مر معنا في القرآن الكريم، وفي صحيح السنة النبوية المطهرة .

نص الحديث:

عن معرض بن عبد الله بن معرض بن معيقيب اليماني، عن أبيه، عن جده، قال:

«حججت حجة الوداع، فدخلت دارا بمكة، فرأيت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه مثل دارة القمر، وسمعت منه عجبا.

جاءه رجل بغلام يوم ولد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أنا؟

قال: أنت رسول الله.

قال: صدقت بارك الله فيك.

قال: ثم قال: إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب.

قال أبي: فكنا نسميه مبارك اليمامة".

تخريج الحديث:

رواه البيهقي في دلائل النبوة: ٢٣٠٩.

قال في كنز العمال(١٢/ ٣٨٠): وفيه محمد بن يونس الكديمي.

وجاء في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١٠/ ١٩):

قال الحافظ إبن كثير: وهذا الحديث مما تكلم به الناس في محمد

بن يونس بسببه، وأنكروه عليه واستغربوا شيخه.

وقال المحقق على الطيوريات (٦/ ٢٥):

إسناده مختلق موضوع، والمتهم به محمد بن يونس الكديمي، وقد تفرد به.

أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (٣/ ٤٤٣-٤٤٤)، ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال" (٢٧/ ٧٢-٧٣) عن العتيقي به.

وأخرجه ابن قانع في "معجم الصحابة" (٣/ ١٣٤-١٣٥)، والخطيب أيضاً في المصدر السابق (٣/ ٤٤٢-٤٤٣) من طرق عن الكديمي به.

قال الخطيب عقبه: "هذا آخر حديث الأدمي وابن خلاد، وزاد أبو عمر: قال شاصويه: فسمعت منه منذ ثمانين سنة، وكنت أمرّ بصنعاء على معمر، فأراه يحدث فلم أسمع منه، قال: ولم أسمع غير هذا الحديث".

ثم نقل الخطيب بإسناده عن محمد بن قريش بن سليمان بن قريش المروروذي قال: "دخلت على موسى بن هارون الحمال منصرفين من مجلس الكديمي، فقال لي: ما الذي حدثكم به الكديمي اليوم؟

فقلت: حدثنا عن شاصويه بن عبيد اليمامي، وذكرته له وهو حديث مبارك اليمامة.

فقال موسى بن هارون: أشهد أنه حدث عمن لم يخلق بعد، فنقل هذا الكلام إلى الكديمي، فلما كان من الغد خرج فجلس على الكرسي، وقال: بلغني أن هذا الشيخ - يعني موسى بن هارون- تكلم فيّ ونسبني إلى أني حدثت عمن لم يخلق، وقد عقدت بيني وبينه عقدة لا نحله إلا بين يدي الملك الجبار، ثم أملى علينا ...".

وذكر ابن عدي هذا الحديث فيما أنكر على الكديمي، وأنه روى عن شيخ خلقه لنفسه.

وقال ابن السكن فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر في "الإصابة" في ترجمة معرض بن معيقيب: "له حديث في أعلام النبوة لم أجده إلا عند الكديمي، عن شيخ مجهول، فلم أتشاغل بتخريجه".

وأخرجه البيهقي في "الدلائل"، (٦/ ٥٩)، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى ابن قانع، وعزاه الحسيني في "البيان والتعريف" (٢/ ٨٠) إلى ابن النجار في "تاريخه" من طريق الكديمي.

قال البيهقي: "ولهذا الحديث أصل من حديث الكوفيين بإسناد مرسل، وذكره.

وقال الحافظ ابن حجر: "ومعرض وشيخه مجهولان، وكذلك شاصويه، واستنكروه على الكديمي، لكن ذكر أبو الحسن العتيقي في "فوائده" ... فذلك الرواية التي بعد هذه".

وأخرجه ابن جميع الصيداوي في "معجم شيوخه" (ص٣٥٤)، ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد: (٣/ ٤٤٤) من طرق عنه، عن العباس بن محبوب بن عثمان بن شاصويه بن عبيد، عن أبيه، عن جده، عن معرض بن عبد الله به.

وأخرجه الحاكم في "الإكليل" كما في "الإصابة" (٦/ ١٨٠) من طريق العباس بن محبوب به.

ومحبوب بن عثمان بن شاصويه مجهول. انظر اللسان (٥/ ١٧).

وجاء في فتاوى الشبكة الإسلامية بعد أن ذكروا الحديث:

وهذا الحديث لا يصح.

.http://www.islamweb

وباختصار:

يتبين أن العلماء قد حكموا على هذا الحديث، بالوضع أو بالإرسال.

والحديث المرسل: هو من رواه تابعي وأسنده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن بانقطاع طريق الصحابي.

الخاتمة

وفي ختام هذا الكتاب تبين لنا عجائب قدرة الله سبحانه، وبديع صنعه في خلقه.

فهو سبحانه الذي أوجد الأسباب في هذه الحياة، والتي من خلالها يتوصل الإنسان إلى النتائج، وهو القادر على خرق هذه الأسباب متى شاء، ليعلم العباد أن هذه الأسباب لا تعمل وحدها، وإنما بأمر منه سبحانه.

ومهما أوجد لعباده من الأمور الخارقة، والعجائب الفائقة، فإن الغرض منها هو: أن يتوجه الناس بالطاعة لمولاهم الحق، وأن يعبدوه حق العبادة، ليحرزوا أنفسهم يوم القيامة من عذاب الله وسخطه.

ولكن كما قال الحق سبحانه: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ» (سبأ: ١٣).

وقال أيضا: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» (يوسف: ١٠٣).

والغريب أن الناس عندما ينظرون إلى مخترع من البشر يقفون أمامه مندهشين ، وينظرون إليه خاشعين ، رغم أنه هو المستفيد الأول من هذا الاختراع ، لأنه يحصد من ورائه المال الكثير ، عدا عن السمعة والشهرة التي ينالها .

وربنا في كل لحظة يريهم من عجائب قدرته ، وينعم عليهم ويكرمهم ، ويمرون على هذه النعم التي يعايشونها في الصباح والمساء ، منكرين مشركين جاحدين لمن أوجدها ورزقهم إياها .

قال سبحانه : « وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» (الأنعام : ٩١) .

فعسى أن يجعلنا الله وإياكم ممن يستفيدون ويعتبرون قبل فوات الأوان ، وأن نكون قد استفدنا الدروس والعبر من قصص الأطفال الذين تكلموا في المهد ، ليعلنوا قدرة ربهم على إنطاق الرضيع ، وليوجهوا العقول والقلوب إلى ربها من خلال القصص التي جرت معهم .

ولا أنسى في الختام أن أنقل لكم القصيدة الرائعة التي يتبين من خلالها لكل عاقل : عظيم صنع الله ، وقدرته سبحانه :

لله في الكون آيات لعل ... أقلها هو ما إليه هداكا
ولعل ما في النفس من آياته ... عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا
الكون مشحون بأسرار إذا ... حاولت تفسيراً لها أعياكا
قل للطبيب تخطفته يد الردى ... من يا طبيب بطبه ارداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا
قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنـايا يا صحيح دهاكا
قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذي أهواكا
بل سآئل الأعمى مشى بين الزحـ ... ـام بلا اصطدام من يقود خطاكا
قل للجنين يعيش معزولا بلا ... راع ومرعى من الذي يرعاكا
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا ... عند الـولادة من الذي أبكاكا
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاكا
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو ... تحيـا وهـذا السـم يمـلأ فاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهداً وقل للشهد من حلاكا
بل سائل اللبن المصفى كان بين ... دم وفـرث مـن الـذي صفاكا
وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا ... ميت فاسأله من يا حي قد أحياكا
قل للنبات يجف بعد تعهد ... ورعايـة من بالجفاف رماكا
وإذا رأيت النبت في الصحراء يربو ... وحـده فاسـأله مـن أربـاكا
وإذا رأيت البدر يسري ناشراً ... أنـواره فاسـأله مـن أسـراكا
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي ... أبعد كل شيء من الذي أدناكا
قل للمرير من الثمار من الذي ... بالمر من دون الثمار غذاكا
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى ... فاسأله من يا نخل شق نواكا
وإذا رأيت النار شب لهيبها ... فاسأل لهيب النار من أوراكا
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحا ... قمم السحاب فسله من أرساكا
وإذا ترى صخرا تفجر بالمياه ... فسله من بالماء شق صفاكا
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال ... سرى فسله من الذي أجراكا
وإذا رأيت البحر بالماء الأجاج ... طغى فسله من الذي أطغاكا

وإذا رأيت الليل يغشى داجياً ... فاسأله من يا ليل حاك دجاكا
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحكاً ... فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا
ستجيب ما في الكون من آياته ... عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا
ربي لك الحمد العظيم لذاتك ... حمداً وليس لواحد إلاكا
يا منبت الأزهار عاطرة الشذى ... ما خاب يوماً من دعا ورجاكا
يا مجري الأنهار عاذبة الندى ... ما خاب يوماً من دعا ورجاكا
يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي ... بالله جل جلاله أغراكا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مسرد الموضوعات

المقدمة ٥
المبحث الأول: عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . . ١١
مريم ابنة عمران من عائلة تقية نقية ١٤
ولادة مريم رضي الله عنها وكفالتها ١٥
فضل مريم على نساء العالمين ١٨
جبريل يبشر مريم بعيسى ويعطيها أوصافه ٢١
مريم تعبر عن دهشتها ٣٢
حمل مريم ووضعها ٣٣
كرامات الله لمريم في الولادة ٤٠
عيسى عليه السلام يكلم الناس في المهد ٤٣
الكلمات التي نطق بها عيسى في المهد ٤٤
«وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ: ٤٦
معجزات عيسى عليه السلام ٥١

عيسى والحواريون ٥٤
عيسى يبشر قومه برسول الله ٥٧
وَيَوْمَ أَمُوتُ(إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَي) ٦٠
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ٦٣
نزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان . ٦٨
غريب الحديث: ٧٣
رسولنا يصف لنا عيسى ابن مريم. ٧٩
غريب الحديث: ٨١
غريب الحديث: ٨٢
موت عيسى عليه الصلاة والسلام. ٨٥
العيشة بعد عيسى ٨٦
رسولنا يحملنا أمانة. ٨٧
ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ٨٨
لطائف قرآنية: ٩٠
المبحث الثاني: شاهد يوسف ٩١

تمهيد: ٩٣
نبذة عن حياة نبي الله يوسف وصولا للشاهد . . ٩٤
نشأة يوسف عليه السلام ٩٤
إخوة يوسف ينفذون مخططهم: ٩٦
المحنة الثانية ليوسف. ٩٩
وهنا تحدث المعجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام: ١٠٤
المبحث الثالث: الغلام الذي تكلم في المهد
في قصة أصحاب الأخدود ١٠٩
تمهيد: ١١١
معاني بعض الكلمات: ١١٩
تحليل القصة وفوائدها ١٢٠
المبحث الرابع: ابن ماشطة ابنة فرعون ١٤٩
تمهيد: ١٥١
تخريج الحديث: ١٥٤
غريب الحديث: ١٥٥

المبحث الخامس: الطفل الذي تكلم للعابد جريج . ١٦٩
تمهيد: ١٧١
نص الحديث: ١٧٢
تخريج الحديث: ١٧٤
غريب الحديث: ١٧٤
تحليل القصة وفوائدها: ١٧٥
المبحث السادس: الرضيع الذي دعا الله ١٨٩
أن لا يجعله كالجبار ١٨٩
تمهيد: ١٩١
نص الحديث: ١٩٢
تخريج الحديث: ١٩٣
غريب الحديث: ١٩٤
تحليل القصة وفوائدها: ١٩٤
المبحث السابع: مبارك اليمامة ١٩٩
تمهيد: ٢٠١

نص الحديث: ٢٠٢
تخريج الحديث: ٢٠٢
الخاتمة ٢٠٧
مسرد الموضوعات ٢١١

يمكنك قراءة كتب ومقالات للمؤلف على المواقع الآتية:

١- صيد الفوائد

٢- الموسوعة الشاملة

٣- المختار الاسلامي

٤- مكتبة مشكاة للكتب الاسلامية

كما ويمكنك مشاهدة بعض الدروس والمواعظ على اليوتيوب

الشيخ غانم غانم على اليوتيوب